بسم الله الرحمن الرحيم

# رؤية القرآن للعالم ودلالتها على مفهوم الاستخلاف

(بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم–2014)

(السودان– جامعة الجزيرة – معهد إسلام المعرفة)

مقدمة:

سوف نحاول في هذا البحث استلال المضامين التي يأتلف منها مفهوم الاستخلاف من "رؤية القرآن للعالم"؛ وهي رؤية استنبطها هذا الباحث من القرآن الكريم منذ تسعينات القرن الماضي، تأسيسا على مفهوم "رؤية العالم"، وأصبحت أساسا لكل بحوثه المنشورة. ولأن هذا الإطار النظري ظل هو الأساس الذي أنطلق منه فقد صار لزاما عليّ أن أقدمه، في معناه ومبناه، بين يديْ كل موضوع بحثي أطرقه، مما يعني أن من سبق له الاطلاع عليه لا يلزمه تجرّع مرارة قراءته مرة أخرى في هذا البحث، بل يمكنه الانتقال مباشرة إلى الجزء الأخير من البحث، وهو المتعلق بمفهوم الاستخلاف. أما الذين لم يسبق لهم الإلمام بهذا الإطار النظري فلا مناص لهم من ابتدار البحث بقراءته لأن كثيرا من القضايا التي سوف نطرقها في مفهوم الاستخلاف تستند إلى "رؤية القرآن للعالم" هذه.

إذن سوف يتكّون هذا البحث من أربعة محاور: المحور الأول؛ نتاول فيه بإيجاز مفهوم "رؤية العالم" من حيث أهميته وتعريفه وأهم مضامينه، المحور الثاني؛ ويتناول مفهوم "الفطرة" في القرآن الكريم للوقوف على حقيقة الإنسان المستخْلَف، كما يراها الباحث من خلال النصوص، المحور الثالث؛ ويجمل "رؤية القرآن للعالم"، والمحور الرابع؛ يتعلق باستلال مضامين مفهوم الاستخلاف مما سبق.

## 1- مفهوم رؤية العالم: الأهمية، التعريف والقضايا

هذا الجزء يحتوي على تلخيص لأهم القضايا التي تتعلق بمفهوم "رؤية العالم" في الأدبيات الغربية حيث نشأ هذا المفهوم وتطور وتبلور كأحد أهم المفاهيم المعرفية ذات الخصوبة المنهاجية، وتم توظيفه في كافة الحقول المعرفية المعروفة بما في ذلك الحقل الديني المسيحي، ولا يزال يزداد في الأهمية وفي استيراده وتوظيفه في بيئات حضارية مختلفة منها الإسلام[1]. وقد رأيت أن أستعين بمقتطفات من كتابات بعض علماء المسلمين ممن كان لهم اهتمام بالمفهوم للتدليل على الحاجة إلى توظيفه في الإطار المعرفي الإسلامي، وأهمية ذلك. وانحصرت هذه المقتطفات في القسم (1.1) فقط.

### 1.1- لماذا نحتاج إلى رؤية العالم؟

يعلل علماء الغرب المهتمون بقضية "رؤية العالم" أهمية المفهوم والحاجة الملحّة إلى البحث فيه كمجال معرفي بأن أحد أكبر المشاكل التي تواجه مجتمعات اليوم هي الآثار الناجمة عن التغيير الشامل والمتسارع على النفس البشرية؛ فلا العقول الفردية ولا الثقافات الجمعية بقادرة على التعامل مع التعقيدات المتنامية في الحياة وأنماط التغيير التي لا يمكن التنبؤ بها. إن الضغوط والاحباطات وعدم اليقين في تزايد، والعقول مثقلة بالمعلومات، والعلم يتشظّى، والقيم تتآكل، ويتم التأكيد على التطورات السالبة وتهمل التطورات الإيجابية.

النتيجة هي خلق مناخ من العدمية والقلق واليأس، ولم يعد لحكمة وخبرات الماضي أثر على الحاضر، بينما لا نملك رؤية واضحة للمستقبل. لم يعد هناك شيٌء يمكن أن يقود ويوجه أفعال إنسان اليوم.

---

[1] - أنظر في هذا الخصوص المراجع الآتية: World Views: From Fragmentation to Integration, by Aerts, D., Apostel, L., (Internet edition- 2007). Worldview: The History of a Concept, Naugle,D.(2002),Wm. B. Eerdmans Publishing Co., Worldview: History, Theology, Implications, by David K. Naugle, (internet). David Naugle on Worldviews, by Dale Cannon, in " Tradition and Discovery: The Polanyi Society Periodical, (33:1).
كما يعتبر كتاب سيد قطب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" من أوائل الكتب التي آذنت باستيراد المفهوم إلى الحقل المعرفي الإسلامي.

العالم في حاجة إلى إطار مرجعي يربط كل شيءٍ بعضه ببعض بحيث يمكّننا من فهم المجتمع؛ فهم العالم ومكان الإنسان فيه، ويعيننا على اتخاذ القرارات الحاسمة التي تشكل مستقبلنا. هذا الإطار المرجعي يؤلف بين أنماط الحكمة التي أنتجتها العلوم والفلسفات والأديان، ولا يركز على جزئية محدودة من الحقيقة، بل لابد أن يعطينا الحقيقة كلها. ولابد أن يعيننا مثل هذا الإطار على فهم ومن ثمّ التعامل مع التعقيدات والتغيير. مثل هذا الإطار التصوري يمكن تسميته "رؤية العالم"(Worldview).

ويؤكد العلماء المسلمون من ذوي الاهتمام بالقضايا الكلية للأمة الإسلامية ذات الأهمية لمفهوم رؤية العالم والبحث فيه في الإطار الإسلامي، فيقول الدكتور فتحي حسن ملكاوي:

*" إن كل صور السلوك الإنساني يمكن في النهاية إرجاعها إلى رؤية العالم. وهي نتيجة كافية بحد ذاتها للكشف عن أهمية رؤية العالم في الحياة الفردية والاجتماعية والنشاط العلمي. وحسب هذه النتيجة نستطيع أن نؤكد الدور المركزي لرؤية العالم في أعمالنا، دون أن نقلل من أهمية العوامل الأخرى مثل نفسية الفرد والمحيط المادي والاجتماعي. ولكن من الناحية المعرفية فإن رؤية العالم أكثر أهمية بكثير من أي عناصر أخرى ذات علاقة بالسلوك الإنساني، لأنها الإطار الوحيد الذي يمارس العقل الإنساني فيه عمله لاكتساب المعرفة. ولذلك فإن رؤية العالم هي الأساس لأي نظرية معرفة وأي جهد لاكتسابها أو توظيفها. إن وضوح الرؤية الكونية وتماسكها يولد طاقة وحماسا للحصول على المعرفة، وهمة عالية للإبداع والاكتشاف، وستكون نتائج بحث العلماء ومكتشفاتهم منسجمة مع معتقداتهم. ولذلك فإن تشوّه الرؤية الكونية لدي العلماء والطلبة في مجتمعاتنا(المجتمعات الإسلامية) لا يوفر لهم ذلك الحماس والهمة العالية، وأصبح البديل هو انتحال الأعذار وضياع الوقت وخور العزيمة، وفي أحسن الأحوال تكرار معارف الآخرين، دون استيعابها وتوظيفها.*

*ويتداخل مفهوم رؤية العالم في مختلف حقول المعرفة: في الدين، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة...إلخ. وهي نفسها الأسئلة التي انشغلت بها الفلسفة منذ بداية عهد الإنسان بميادينها. وهي المحتوى الأساسي لفلسفة أي علم من العلوم الحديثة الذي يؤثر في تشكيل نظريات هذه العلوم ومناهج البحث فيها....*

*إن وظيفة رؤية العالم في الأساس هو تزويدنا بالإطار العام الذي نفهم به كل شيئ ونفهم أنفسنا أيضا، وجعل فهمنا ضمن كل موحد، فكلما حاولنا أن نكوّن فهما معينا أو نصوغ نظرية لتفسير شيئ ما، فإننا بالضرورة وبطبيعة عمل العقل نستخدم رؤيتنا للعالم. ولذلك فإن وظيفة رؤية العالم هي وظيفة معرفية. ودور المفكر المسلم المعاصر لا يقتصر على ضرورة استخدام رؤية العالم بوصفها وحدة*

*تحليل للأفكار والمواقف والأشخاص والمؤسسات، ليعرف أين وكيف تختلف رؤيتنا للعالم عن الرؤى الأخرى، بل عليه أن يجعل الرؤية الإسلامية للعالم معروفة لأصحاب الرؤى الأخرى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة".*[2]

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان:

*"ومع ذلك فإن كثيرا من الأمم أمكنهم أن يلحقوا، بل أن يتفوقوا ويبزّوا كثيرا من بلاد الغرب وإنجازاته وإبداعاته المادية، أما الشعوب الإسلامية فإنها- مع كل الانبهار والتقليد والمتابعة لأوربا والغرب في كل وجوه الحياة المدنية وغير المدنية والعسكرية والاقتصادية والسياسية- لم تنته إلا إلى محاكاة قاصرة شكلية، وإلا إلى مزيد من التخلف والقصور والمعاناة والمظالم، وإلا إلى اتساع الهوة بين عالمنا وعالمهم.*

*وبعد هذه القرون من محاولات التقليد والمحاكاة الفاشلة أصبح واضحا كوضوح الشمس أنه مهما توافرت الوسائل واشتدت المعاناة فإنه لن يتبدل الحال، ولن تستخدم الوسائل، ولن تستقيم الأمور ويعتدل الميزان، إذا لم تكن هناك رؤية كونية حضارية تعطي الإنسان المسلم معنى حقيقيا إيجابيا للوجود، وغاية وهدفا دافعا لهذا الوجود، تكون بمنزلة المحرك والدافع للفعل والعطاء والحركة الإعمارية الإصلاحية.*

*هنا أدركت أن إشكالية الرؤية التي تحدد الغايات وتوفر الدافع هي الأساس الأول والأكبر لكل فعل وحراك إنساني وحضاري، وما لم يكن هناك رؤية كونية حضارية إيجابية توفر الغاية والدافع، فلن تتحرك الأمة، ولن يتحرك الإنسان، ولن تفيد الآلات والأدوات والوسائل والتهديدات والإرشادات والنصائح، مهما كانت وفيرة، ومهما كانت جيدة وفعالة، مثلها في ذلك مثل آلة مفككة إلى قطع، فبالرغم من أن كل جزء منها غال وثمين، وفي حالة جيدة، نهتم به ونقدره، فإنه لن يؤدي مهمته، ولن يثمر إنتاجا، إذا لم يوضع في رؤية كيانه الكلّي القادر على الإنتاج والحركة.*

*بل لعل أبلغ من ذلك حال الألوف من حملة الشهادات العليا في منهجيات البحث العلمي، وفي علوم التربية، الذين مع سواهم من ألوف الجامعيين المتخصصين، لافتقادنا الرؤية والدافعية، لم تنفعنا آلياتهم ولا أدواتهم ولا فنياتهم شيئا لتحريك الأمة ودفعها إلى الفعل والحركة؛ لأن الفعل والحركة يرجعان إلى الرؤية والغاية والدافع الذي هو الجوهر والمحرك، فمن لا رؤية له ولا غاية ولا مقصد فإنه لن يتحرك مهما توافرت له المعلومات والوسائل والآليات، ولن يفيد منها، ولن يحسن استخدامها، مثله في ذلك مثل التاجر ورجل الأعمال حين تحدثه في محاضرة علمية قيّمة عن كشف أثري أو مخطوطة نادرة، ومثله في ذلك أكاديمي في علم الحشرات أو الأفلاك حين تحدثه عن فرص جديدة في عالم التجارة والأعمال؛ فكل واحد منهما لن يحركه إلا ما له فيه غاية وهدف.*

---

[2]– " رؤية العالم والعلوم الاجتماعية"؛ د. فتحي حسن ملكاوي؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

*وهنا وجدت أن عليّ أن أعطي موضوع الرؤية الكونية حقه من العناية والاهتمام، لعل ذلك يفيد في أن تستعيد الأمة دوافعها وغاياتها وحراكها الإسلامي الإعماري الحضاري الخيّر، وفي أن تستعيد بذلك قيادتها وريادتها للحضارة الإنسانية، على ضوء رسالتها الحضارية الحياتية الخيرة المقدسة، لتستنقذ ذاتها، وتستنقذ الحضارة الإنسانية من ورائها".*[3]

وقبلهم أكد الأستاذ الشهيد سيد قطب ذات الأهمية لمفهوم رؤية العالم، ومن ثم رؤية الإسلام للعالم، أو "خصائص التصور الإسلامي" بتعبيره هو، إذ يقول:

*"تحديد خصائص التصور الإسلامى ومقوماته مسألة ضرورية لأسباب كثيرة:*

*ضرورية لأنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود يتعامل على أساسه مع هذا الوجود. لابد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التى يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية(وهذه تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان) وما بينها جميعا من تعامل وارتباط.*

*وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان فى هذا الوجود الكونى، وغاية وجوده الإنسانى، فمن هذه المعرفة يتبين دور "الإنسان" فى "الكون"، وحدود اختصاصاته كذلك، وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعا.*

*وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان فى الوجود الكونى وغاية وجوده الإنسانى، يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذى يحقق هذا المنهج، فنوع النظام الذى يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل، ولابد من أن ينبثق منه انبثاقا ذاتيا وإلا كان نظاما مفتعلا، قريب الجذور، سريع الذبول، والفترة التى يقدر له فيها البقاء هى فترة شقاء "للإنسان"، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية، وحاجات "الإنسان" الحقيقية! الأمر الذى ينطبق اليوم على جميع الأنظمة فى الأرض كلها، بلا استثناء، وبخاصة فى الأمم التى تسمى "متقدمة."*

*وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد، وهى فى الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية، وتحقيق منهج الله فى الأرض، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة، والمناهج الضالة، والتصورات الضالة – وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف فى الصور والأشكال. وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي، وخصائصه ومقوماته، هو الذى يكفل له أن يكون عنصرا" صالحا" فى بناء هذه الأمة، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز، وعنصرا" قادرا" على القيادة والإنقاذ، فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي*

---

2- "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني"؛ أ.د. عبد الحميد أبو سليمان؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي (1429/8/8هـ – 2008/8/9م).

*الذى ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردى كله، والنشاط الجماعى كله، فى شتى حقول النشاط الإنساني."*[4]

## 2.1- تعريفات مختلفة لرؤية العالم

### 1.2.1- تعريف فلسفي

رؤية العالم عبارة عن زمرة من التصنيفات(Categories) العقلية تنشأ من التجارب الحياتية العميقة، وتحدد بصورة أساسية الطريقة التي يفهم بها الإنسان ويحس ويستجيب بالفعل(Action) لما يرى أنه العالم المحيط به، وما يثيره من صنوف ألغاز الحياة.

### 2.2.1- تعريف ديني

رؤية العالم هي التزام، توجهات أساسية للقلب، يمكن التعبير عنها في شكل قصّة، أو في شكل افتراضات قبلية- افتراضات قد تكون صحيحة كليا، أو جزئيا، أو كاذبة تماماً، نحملها في الوعي، أو في اللاوعي، في اتساق، أو في غير اتساق- عما تتكوّن منه الحقيقة الجوهرية للواقع، وتؤسس للطريقة التي بها نحيا ونتحرك ونحقق ذاتنا.

يجب التأكيد على الآتي في هذا التعريف:

1/ رؤية العالم كالتزام(Commitment)؛ ويعني ذلك أنها تسكن في أعماق الإنسان، متجاوزة الأبعاد الفكرية واللغوية. إنها أمر يتعلق بالروح، وهي توجهات روحية أكثر منها عقلية.

2/ رؤية العالم كتوجهات قلبية؛ حيث يتضمن مفهوم القلب أبعاد الحكمة، العاطفة، الرغبة والإرادة، والأبعاد الروحية والفكرية.

رؤية العالم إذن مستقرها القلب باعتباره جوهر الإنسان. لذلك فإن رؤية العالم تعتبر في عداد القبليات المستقرّة في منطقة اللاوعي ولكنها توجّه العقل الواعي، فنحن نفكر من خلال رؤيتنا للعالم، وبسبب رؤيتنا للعالم، وليس حول رؤيتنا للعالم.

[4]- "خصائص التصور الإسلامي وضوابطه"؛ سيد قطب؛ نسخة بالإنترنت.

3/ رواية رؤية العالم في شكل قصّة، أو في شكل زمرة من الافتراضات القبلية، رغم أنها ليست بقصة أو افتراضات قبلية.

4/ افتراضات قد تكون صحيحة، كلياً أو جزئياً، أو قد تكون كاذبة كلها. هذا يعتمد على مقاربتها للحق الذي تقوم به الأمور في الواقع.

5/ افتراضات قبلية، نحملها بوعي أو بدون وعي، وقد تكون متسقة وقد لا تكون متسقة.

6/ الحقيقة الجوهرية للواقع، وذلك لأن رؤية العالم معنيّة في الأساس بالحقيقة الوجودية(Ontological)، أي الواقع على ما هو عليه.

### 3.2.1 – تعريف أكاديمي

رؤية العالم عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة.

يتبع هذا التعريف مجموعة من القضايا، هي:

#### 1.3.2.1- بناء رؤية للعالم

تشتمل على محاولات لتطوير رؤى للعالم تأخذ في الاعتبار أكبر قدر من أوجه خبراتنا الحياتية. ورغم أن هذا البناء يتم عبر جسور اللغة التي تتسم بالمحدودية إلا أن مشروع البناء يستحق الجهد. يرتبط بناء الرؤى للعالم بالثقافة التي عبرها يتم تداول المعاني، وتنتقل أنماط السلوك من جيل إلى جيل، وحيث يتم إنتاج المشاكل الاجتماعية، والسياسية، وأنواع الفنون. أما المواد التي تبنى بها رؤى العالم فتأتي من خبراتنا الذاتية العميقة، ومن معاملاتنا العملية مع أشياء الحياة، وكذلك من تفسيرات التاريخ، والدين، والمعرفة العلمية عن عالمنا. كل هذه الأمور ترتبط بالضرورة بثقافة معينة ليست بجامدة بل هي في تغير مستمر. لذلك فإن رؤية العالم ليست صورة جامدة، أو نسخة كربونية من العالم، بل تحاول أن تلتقط أكبر قدر من سمات عالمنا.

### 2.3.2.1- خصائص رؤية العالم

أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و"الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والاستعارات التي لا يقصي بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفية للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة. ولكن مع ذلك فإن رؤية العالم أكبر من مجموع الحقائق العلمية التي تأتي بها العلوم الفيزيائية والاجتماعية. لذلك فإن رؤية العالم قد تلهم مزيداً من التطور في العلم، وقد تنتقد بعض جوانبه. من هذه الزاوية تصبح رؤية العالم امتداداً وتواصلاً لما جاء إلينا من العلوم، أحياناً تتطابق معه، وأحياناً تقوم بالتعميم منه، وأحياناً تنقده وترفضه.

إن رؤية العالم لا تنسب إلى ناتج العلوم وحده، بل ينبغي أن تسمح لنا بتضمين عالم المعاني وعالم القيم بحيث نفهم أكبر قدر من سمات عالمنا. ولأن عملية التقويم تحتوي على قدر كبير من الذاتية، ومن ثم تلتصق بشخص بعينه حتى داخل الثقافة الواحدة، فإن من الصعوبة البالغة تحقيق رؤية عالم كونية شاملة وواحدة لكل الناس.

إن رؤية العالم يجب أن تتسع لتجاربنا الجمالية والأخلاقية، وكذلك لأفعالنا الحقيقية المتوقعة في هذا العالم، بما في ذلك الأفعال السياسية. وهذه الأخيرة تجعل من الأيديولوجيات مكونا في رؤية العالم.

## 3.1- المكونات السبعة لرؤية العالم

### 1.3.1- نموذج للعالم(A model of the world)

يجب أن تمكننا رؤية العالم من فهم كيف يعمل العالم وكيف بُني. "العالم" هنا تعني كل شيء موجود حولنا بما في ذلك العالم الفيزيائي، الأرض، الحياة، العقل، المجتمع والثقافة. الإنسان نفسه جزء مهم من العالم لذلك لابد أن تجيب رؤية العالم عن السؤال الأساس: من نحن؟

### 2.3.1- التفسير (Explanation)

لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء هذا العالم؟ من أين جاء الجنس البشري؟

### 3.3.1- المستقبليات(Futurology)

إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف نختار بين المسارات المستقبلية المختلفة بحيث نفضل ما يجب تفضيله؟

### 4.3.1- القيم(Values)

ما هو الخير والشر؟ يتضمن هذا المكون النظام الأخلاقي الذي يحدد لنا ما يجب وما لا يجب أن نفعله. يعطينا هذا المكون أيضاً زمرة من المقاصد التي تقود أفعالنا.

### 5.3.1- الفعل(Action)

إن معرفة الأهداف والمقاصد لا يعني معرفة كيفية الوصول إليها، لذلك لابد من الإجابة عن السؤال: كيف نفعل؟ يجب أن نعطي نظرية للفعل تعيننا على حل مشاكل عملية، وتنفيذ خطط أفعالنا.

### 6.3.1- العلم(Knowledge)

تعتمد الخطط على العلم والمعلومات والنظريات والنماذج التي تصف الظواهر التي تواجهنا. لذلك نحن في حاجة لمعرفة كيف نبني نماذج معرفية يمكن الاعتماد عليها، وهذا هو مكوّن كسب العلم في رؤية العالم. يجب الإجابة عن السؤال المتعلق بما هو حقيقي وما هو كاذب.

### 7.3.1- كُتل البناء(Building Blocks)

الرؤى للعالم لا تبدأ من لا شيئ، بل لابد من كُتَلٍ تبدأ بها، وتتمثل في النظريات العلمية القائمة، النماذج، المفاهيم، القيم وغيرها من الموجهات المتوزعة بين التخصصات العلمية والأيديولوجيات.

### 4.1- اختبارات رؤية العالم

1.4.1- اختبار النسقية: هل رؤية العالم المعنية متسقة منطقياً؟

2.4.1- اختبار الوسطية: هل تقوم رؤية العالم المعنية على ميزان قسط بين التعقيد والتبسيط؟

3.4.1- اختبار القوة التفسيرية ومدى الرؤية: إلى أي مدى تحسن رؤية العالم تفسير الواقع؛ وما مدى كمال الأدلّة الداعمة لمجال رؤيتها؟

4.4.1- اختبار التوافق: إلى أي مدى تتوافق رؤية العالم المعنية مع حقائق الواقع المؤكدة؟

5.4.1- اختبار الإثبات: هل يمكن تأكيد، أو تكذيب الحقائق المركزية التي تدعيها رؤية العالم المعنية؟

6.4.1- اختبار الواقعية: هل تدعم رؤية العالم المعنية نتائج واقعية وعملية بحيث يمكن عيشها في الخارج؟

7.4.1- الاختبار الوجودي: هل تعالج رؤية العالم الاحتياجات الداخلية الحقيقية للبشر بحيث يمكن عيشها في الداخل الوجداني؟

8.4.1- اختبار المنافسة: هل تستطيع رؤية العالم المعنية المنافسة في سوق الأفكار؟

9.4.1- اختبار التنبؤ: هل تستطيع رؤية العالم المعنية التنبؤ بنجاح بالاكتشافات المستقبلية؟

## 2- الإنسان من خلال مفهوم الفطرة في القرآن الكريم

قول الله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(الروم:30)، يدل على أن الدين الحق، بحقيقته التي توحّد باطن الإنسان، ومقاصد وأحكام شريعته التي توحد ظاهر حياته، معادل للفطرة(الخلقة) البشرية التي فطر(خلق) الله تعالى الناس عليها، في أصولها الكلية وتمظهراتها التفصيلية. إذن ما هي هذه الأصول الكلية للفطرة البشرية كما جاءت في القرآن الكريم؟ وما هي تمظهراتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع كل ذلك فطرة الله التي

فطر الناس عليها، مصداقاً لقوله تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦)(الرعد)؛ (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦)(الصافات)، ثم كيف يكون دين التوحيد الحق(قرآن، سنة)، وهو علم، معادلاً في حقيقته وأحكام شريعته لهذه الفطرة البشرية ذات الطبيعة الكونية؟ بالنظر الفاحص المتدبر في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية:

**أولاً؛** ثنائية الخلق من الجسد الطيني والروح المغايرة للطين كما في قوله تعالى: (وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩)(الحجر)؛ (إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢)(ص). وحقيقة الروح سكت عنها القرآن الكريم إذ هي من الأمر الإلهي: (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥)(الإسراء). ونلاحظ هنا أن الله تعالى لم يذكر في تكوين الإنسان سوى عنصرين، الصلصال الطيني والروح، مما يدل على أن "النفس" البشرية، ما دامت ليست هي الروح لأنه تعالى سكت عن الأخيرة وبيّن طبيعة الأولى كما سوف يتضح أدناه، فهي من الصلصال الطيني، ويدخل بذلك الماء في تركيبها، ومن ثم تكون هي أصل الحياة في الإنسان، لأن الله تعالى جعل من الماء كل شيئ حي، وهذا هو الأصل المشترك بين الإنسان والحيوان.

**ثانياً؛** ثنائية في خصائص النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها: (وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠)(الشمس). ملهمات الفجور في النفس تمثلت في صفات فطرية مثل **الشح:** (وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ١٢٨)(النساء)، **الهلع:** (إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١)(المعارج)، **الضعف:** (وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا

﴿٢٨﴾(النساء)، **العجلة:** (خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ ﴿٣٧﴾)(الأنبياء). وتتركب من هذه الخصائص الفطرية وتتفرع عنها صفات سالبة أخرى، تقوى أو تضعف أو تنعدم في الشخص بحسب أحوال الناس، منها: البخل؛ الكبر؛ الحسد..إلخ. ونلاحظ أن ملهمات الفجور ترتبط إرتباطا وثيقا، وذات علاقة طردية، بشهوات زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، فهي تقوى وتطغى على النفس التي يتمكن منها حب تلك الشهوات(الهوى)، ويضعف سلطانها على النفس بحسب ذلك.

ملهمات التقوى موجودة بالقوة في النفس، ولكنها توجد بالفعل عن طريق المجاهدة والتزكية للنفس من ملهمات الفجور المذكورة أعلاه. ومن ملهمات التقوى: العلم، الرحمة، الصبر؛ العدل؛ الإحسان؛ الصدق؛ السخاء..إلخ. ونلاحظ أن ملهمات التقوى في النفس ذات علاقة عكسية بشهوات زينة الحياة الدنيا، فكلما ضعف حب النفس لتلك الشهوات(الهوى) كلما قوي تأثير ملهمات التقوى في النفس.

واضح من الآيات السابقة أن النفس غير الروح، ونستنتج أن الروح هي التي تعطي الإنسان حظّه النسبي من الصفات الإلهية، التي هي ملهمات التقوى(الإيمان، العلم، الرحمة، العدل، الإحسان، الصدق، البر، الكبرياء، الهيمنة، العزة، الجبرة، القهر، المغفرة....إلخ) ما جعله يتميز عن باقي المخلوقات، واستحق بها التكريم وسجود الملائكة له. ولكن الله تعالى بيّن لنا ما يكفي عن النفس وتسويتها، وخصائصها ودورها في حياة الإنسان، وما هو مطلوب من الإنسان بشأنها. كذلك فإن الخطاب القرآني يوجه دائما إلى النفس باعتبارها مدار التكليف في الدنيا، والمستهدفة بالموت انتقالا منها، وبالجزاء في الدار الآخرة. ويبدو، والله تعالى أعلم، أن الروح هي مستودع ملهمات التقوى الأخلاقية الإلهية التي ذكرتها سابقا، وهي التي تُكسب وتُمد النفس بما يناسبها من تلك الصفات، والنفس من جانبها تتخلّق وتحدد الكيفية التي توظف بها تلك الصفات الإلهية بحسب أحوالها من فجور وتقوى، وهي تتقلب في ابتلاء زينة الحياة الدنيا(المال والبنون). لذلك فإن الإنسان الذي يكاد ينعدم فيه تأثير الروح بسبب كفره بالله تعالى يعود إلى أصله المشترك مع الحيوان، ويصير كالأنعام، وقد صدّق ذلك القرآن في قوله تعالى: (وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ

ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾(الأعراف)؛ (أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾(الفرقان)؛ (...وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾(محمد).

**ثالثاً**؛ من أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة القدرة على كسب العلم، وترتكز هذه القدرة على خصائص السمع والبصر والفؤاد: (وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾(النحل).

**رابعاً**؛ زيّن للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان؛ لذلك لا يُرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفاسد عن نفسه؛ سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره واتباع منهجه، فقال: (وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾)(طه)، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها، مع الإعراض عن ذكر الله ومنهجه، لا يجلب للإنسان سعادة حقّة، ولا أمنا ولا طمأنينة، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم، ولا تبديل لخلق الله.

**خامساً**؛ أودع الله تعالى في أصل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال، لذلك قال: (وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴿٢٩﴾)(الكهف)، وقال: (خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾)(النحل).

**سادساً؛** جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطراراً مهما أعرض ونأى بجانبه، كما في قوله تعالى:(وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾)(الإسراء)؛ وفي قوله تعالى:(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾)(النحل)؛ وقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴿١٧٢﴾)(الأعراف). لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب، أيا كان نوع هذا الارتباط، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذا الارتباط الفطري بالغيب.

نخلص من أصول الفطرة البشرية المذكورة آنفاً إلى نتيجة نقررها الآن ونبررها فيما يأتي من صفحات إن شاء الله تعالى، وهي الآتي:

***الظاهرة الاجتماعية، بجميع مظاهرها في الزمان والمكان، إنما هي التمظهرات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفًا مع كليات زينة الحياة الدنيا(المال، البنون).***

إذن قول الله تعالى إن الدين القيّم(القرآن، السنة) هو هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها يعني، في رأي الباحث، أنه يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعلاتها الكونية في كل زمان ومكان، حيث يبيّن القرآن الكريم أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه، ويفسّر "خطة الخلق العامة"[5] في عالم الشهادة وتجلياتها عبر التاريخ، ثم يبيّن مآلها وتأويلها رجعى إلى عالم الغيب.

بناءً على ما سبق يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم المبني على أصول التقوى في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا عملاً صالحاً، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس

[5] – أنظر مضمون هذا المصطلح في الجزء التالي من البحث.

اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا سعياً في الأرض فساداً: (قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)(الأنعام)، وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾)(الأنعام). كل ذلك حتى يحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وما ربك بظلاّمٍ للعبيد.

**سابعاً**؛ نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقى من الوحي الكريم(إبستمولوجيا الظاهرة الاجتماعية)، كما أن السنن الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا، والمكتشفة والمؤكدة بواسطة البحث العلمي التجريبي(أنطلوجيا الظاهرة الاجتماعية) لا يمكن أن تتعارض مع سنن وأحكام الوحي المتعلقة بها، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لكيفية عمل تلك السنن الاجتماعية الإلهية، ولحكمة التشريع الإسلامي وعلله ومقاصده. وهذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية، كما القوانين الطبيعية، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.

## 3- رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة)

تضمّن القسم الأول ثلاثة تعريفات لرؤية العالم: (فلسفي، ديني، علمي)، وسوف نأخذ، في صياغتنا لرؤية القرآن للعالم، بالتعريف العلمي، وبمضمون التعريف الديني وذلك لسببين:

السبب الأول؛ هو أن التعريف العلمي يسمح لنا بالتأسيس العلمي الموضوعي، قدر الإمكان، لرؤية القرآن للعالم، وذلك انطلاقا من القرآن الكريم الذي هو كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير، فهو علم مطلق من عند من خلق العالم بعلمه، وهذه ميزة لا تتوفر إلا لرؤية القرآن للعالم. لذلك نحن سوف نجتهد[6] في استنباط أهم مقومات رؤية القرآن للعالم بحيث تستوفي أكبر قدر ممكن من عناصر التعريف العلمي الذي عرّف رؤية العالم بأنها:

***عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة.***

السبب الثاني؛ هو أن مضمون التعريف الديني لرؤية العالم يتمحور حول "القلب"، والقلب له دور مركزي في رؤية القرآن للعالم إذ تتحول الرؤية القرآنية العلمية الموضوعية للعالم إلى رؤية ذاتية للحياة عند آحاد البشر، يستقر جوهرها الصلب(العقلي، الوجداني، الإرادي) في القلب(عقيدة) لتعبّر عن الخصائص الخلْقية والخُلُقية التي يتميز بها كل شخص عن غيره، ولتحكم من بعد ذلك مساره في أودية الابتلاءات المتجددة أبدا في الحياة الدنيا.

كذلك ورد أن أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و"الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والاستعارات التي لا يقصي بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفية للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة.

---

[6]- مشروع رؤية الإسلام للعالم- كغيره من مشاريع رؤية العالم التي يجري العمل البحثي فيها، وتتم مقاربتها من تصورات فكرية مختلفة- يحتاج إلى مراكز علمية متخصصة، وإلى جهود علمية ضخمة مستدامة، تتضافر فيها قدرات علمية متخصصة في شتى ضروب العلم من كل أنحاء العالم، للإحاطة بكل الجوانب المعرفية الضرورية للرؤية، ولتدارك ما يستجد من تحديات الحياة التي لن تتوقف أبدا في هذه الدنيا.

القرآن الكريم، كونه علم في كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير، ما فرّط فيه من شيئ، يستوفي بالضرورة اللوازم العلمية أعلاه لرؤية العالم: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾)(النساء).

ولأن من خصائص القرآن أنه كريم فهو يعطي على الدوام، لمن تحقق بالمنهج المناسب لتدبر آياته، علما بلا حدود؛ ولأنه في كتاب مكنون فعلمه يتكشّف عبر الزمان إلى قيام الساعة ليستوعب ويصوّب التجربة البشرية ويهديها للتي هي أقوم، ولأنه بلسان عربي مبين فإن لغته العربية هي لغة علمية مفاهيمية منضبطة على مستوى الحرف لتوصل الحق الذي أراد الله تعالى إبلاغه للناس.[7]

إن ما سوف نفعله في هذا الفصل، إن شاء الله تعالى، هو أن نقوم بمقاربة أولية لرؤية القرآن للعالم تأسيسا على القرآن الكريم، بحيث تستوفي قدر الإمكان معايير رؤية العالم المذكورة أعلاه. ومنهج التدبر الذي سوف نتبعه في ذلك يتكّون جوهره من المنهج العلمي المعروف القائم على المقدمات الأولية، والتعميمات الاستقرائية، والاستنتاجات الاستنباطية، وهو منهج يستفيد من التفسير لكنه يتجاوزه إلى التحليل والبناء النظري.

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له، وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام مما أدى إلى خروجه وزوجه من الجنة ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **لخطة الخلق العامة** على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر

[7] - أنظر كتاب محمد أبو القاسم حاج حمد "منهجية القرآن المعرفية"؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **لخطة الخلق العامة** هذه، وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة) هو مبدأ التوحيد: (قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤)(الإخلاص). فالله تعالى ليس كمثله شيئ، غني بذاته مفتقر إليه جميع خلقه، وهو خالق كل شيئ، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيئ إلا يسبح بحمده. وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيئ حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة، فقال: (ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠)(الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية(خطة الخلق العامة) على النحو الآتي:

المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية، المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على الأرض، هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

**أولاً؛** إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(البقرة:36)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)(الأعراف:25)؛

**ثانياً؛** إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه في الأرض: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الإسراء:70)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه"الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستْخِلف"الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾)(الحجرات)؛ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾)(النساء)؛

**ثالثاً؛** إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:61)؛

**رابعاً؛** إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة على العمل: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الملك:2)؛ (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾)(هود). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها؛

**خامساً**؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الكهف:7)؛

**سادساً**؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما: "**المال**"(موارد معدنية، وزراعية، وحيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان)؛ و"**البنون**"(علاقة جنس بين رجل وامرأة تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46)؛

**سابعاً**؛ إن الابتلاء في "المال" و"البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(آل عمران:14)؛

**ثامناً**؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب من عمل الإنسان. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(الإنسان:3)؛ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)(الزمر:7)؛

**تاسعاً**؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من ملهمات الفجور والتقوى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:78)؛ (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق: 5)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(10))(الشمس:7-10). ثم منح الله تعالى الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بأخلاق التقوى الموجبة(الإيمان، العلم، الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق..إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو

بأخلاق الفجور السالبة(الشح، البخل، الكبر، الحسد..إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:29)؛

**عاشراً**؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر في الإنسان، هي: علم وإيمان وعمل صالح. أما العلم فهو **علم** بالمنعم(الله تعالى)؛ **علم** بالمُنعَم عليه(الإنسان)؛ و**علم** بالنعمة(المال، البنون)، والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه. وأما الإيمان فهو **إيمان** بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله، وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. وأما **العمل الصالح** فهو ذلك الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧)(إبراهيم).

ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة(النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي النفسي: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)(لقمان:34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المحسوس الممتزج بالجسد المحسوس كما في قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر:42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46)، وهي علاقة (رجل– امرأة– أبناء– أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)(النحل:72). وأخيراً يرد مفهوم البنين

بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)(الصافات: 149).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تمظهرات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: (ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ...﴿٤٦﴾)(الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾)(آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبط إشباعها بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و "المال" و"البنون" من الأصول الكليّة المطلوب حفظها في مقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1- "العلم بظاهر من الحياة الدنيا"، وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم(السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة.

2- "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم الوحي" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وأخلاق التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وأخلاق الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسؤول عن نشأة المجتمعات الإنسانية، وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت أدت إلى تغشّي الرجلُ المرأةَ، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور

كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

هناك سؤال يطرح نفسه هنا يتعلق بكيف تكاثرت الأسرة الأولى، هل تزوج الإخوان الذكور شقيقاتهم؟ الإجابة هي أنه من حيث التكوين الحيوي والنفسي للإنسان فإن ذلك ممكن، والدليل على ذلك، أولا؛ تحريم القرآن والسنة للعلاقات الجنسية بين المحارم، وثانيا؛ ما نراه من انتشار للعلاقات الجنسية بين المحارم في هذا الزمان مما هو موثّق في الشبكة العنكبوتية. والعلة المانعة هي في الأساس علة شرعية حيث التحريم الإلهي الصريح لهذا النوع من العلاقات، فصارت بذلك محارم لها وازع نفسي تربوي عند أهل الأديان السماوية. ولذلك إن أخذنا بمبدأ أن التكاثر البشري بدأ بزوجين اثنين فقط فلا مناص من التسليم بأن الزواج بين الأشقاء كان مباحا في البدء، ثم حرم بعد ذلك حفظا لقدسية هذا النوع من العلاقة الرحمية بعد أن انتفت الحاجة إليه بسبب حدوث التكاثر العددي الذي أدى إلى التباعد الرحمي، والله تعالى أعلم.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو"الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي أُلهمت فجورها وتقواها وزُيّن لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه، في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى نظام اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض

نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و"لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ (مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾)(النساء). ولكن ملهمات الفجور السالبة التي جعلها الله تعالى خصائص فطرية في النفس البشرية(الهلع، الضعف، العجلة، الكبر، الشح، البخل، الحسد..إلخ) هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)(هود:87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)(الأعلى:16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)(الأنعام:32)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)(الشورى:20).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(المؤمنون:37)، أو قال: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(صّ:16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو "تعظيم متاع الحياة الدنيا": (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20).

أما من قال: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(البقرة:201)؛ أو قال: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:39)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو "تعظيم الإيمان" من خلال "تعظيم العمل الصالح" في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في "تعظيم متاع الدار الآخرة": (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:21)؛ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص:60-61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شئ حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي للمسلم الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع

تمظهراته في السلم، وهو كليّة "**الدين**" المقصود حفظها في مقاصد الشريعة الإسلامية. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ "**الإيمان**" والعمل الصالح: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "**النفس**": (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)(الإسراء:33)؛ و"**البنين**": (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)(الأسراء31-32)؛ و"**المال**": (وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾)(البقرة)؛ و"**العلم**": (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾)(الإسراء:36).

إن العلاقة بين "**الإيمان**" من جهة وبين "**النفس**"، "**العلم**"، "**المال**" و"**البنون**" من جهة أخرى هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل "**التوحيد**" بوجهيه، العقدي(**الإيمان**) والعملي(**الشكر**). ولا يمكن حفظ "**الإيمان**" إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد(**الدين**) على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)(الأنعام،153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية(عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من أخلاق التقوى، أو

بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به ملهمات الفجور، وتمكيناً "للعلم التوحيدي" الذي تتعلق به ملهمات التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولي الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود "الله تعالى" أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف"الله تعالى" من قبل المستخْلَف"الإنسان" فيما استخلف فيه"الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية– بمعناها القرآني لا الاصطلاحي– التي هي شرعة(مقاصد) ومنهاج(وسائل)، هي الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هي أصول الاجتماع الإنساني، وأصول مقاصد الشريعة الإسلامية من حيث الوجود ومن حيث العدم( الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في تفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلّا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية، وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توضع السياسات المناسبة، العام منها والخاص.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النظام المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من "رؤية العالم الدنيوية"، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم

على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الإنساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل رقم (1)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية لنظام الاجتماع التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية لنظام الاجتماع الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا في إطار نظام الاجتماع التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار نظام الاجتماع الدنيوي.

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، "رؤية العالم التوحيدية" التي يمثلها عمود الصناديق في أقصى يمين الرسم، و"رؤية العالم الدنيوية" التي يمثلها عمود الصناديق في أقصى يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. الشكل رقم (2) يجسّم الرؤية التوحيدية للاجتماع الإنساني، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراتها في إطار نظامها الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم (3) الرؤية الدنيوية للاجتماع الإنساني. ومن معطيات الرؤية التوحيدية تأتي الأحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات الرؤيتين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على النفس البشرية، بما في ذلك نفس المسلم.

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل "الإيمان" متغيرها التابع، ومتغيرات "النفس المطمئنة"؛ "العلم التوحيدي"؛ "المال"؛ "البنون"؛ متغيراتها المستقلة؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضا.

الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العري، الإضحاء، العنت) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ، والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية( دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهي أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في "تعظيم متاع الحياة الدنيا"، ويوظف أكثر الوسائل فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني.
ضرب الله تعالى لنا أمثالا في القرآن الكريم قارن فيها بين أهم مخرجات نظام الاجتماع التوحيدي متمثلة في المسلم الراشد، وبين أهم مخرجات نظام الاجتماع الدنيوي متمثلة في الإنسان الدنيوي، فقال:

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

﴿٧٦﴾)(النحل)؛ (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾)(الزمر).

تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم والدينار، فكل شهوة من زينة الحياة الدنيا تنتصب حسناء معلنة عن نفسها وداعية إلاهه(هواه) إليها، ولا يزال يلهث وراء شهوات متشاكسة لا يستطيع قضاء وطره منهن جميعا، ولا يزال يصارع منافسيه عليهن حتى تتقطع به السبل في أودية الشهوات فيجد الله عنده فيوفيه حسابه، والله سريع الحساب. فهو عبد مملوك لشهوات الدنيا ولمن بيده تلك الشهوات من الناس، وكلهم شركاء متشاكسون لايستطيع إرضاءهم جميعا، ولا يمكنه إرضاء أيا منهم دون إغضاب الباقين، فأي خير يرجى من مثل هذا! وهل يستوي هذا ومن حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان فجعله من الراشدين؟ المسلم الراشد خرج عن داعية هواه فهو عبد لله اختيارا، كما هو عبده اضطرارا، فليس فيه شركاء متشاكسون، وهو أبدا على صراط مستقيم.

**الإسلام** الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هي التجلي التاريخي الأتم **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر من الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن النظام المعرفي القرآني للاجتماع الإنساني أعلاه يمكن أن يمثل "**برنامج بحث علمي**"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التجليات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في

الزمان والمكان. ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله، وباتباع المنهج العلمي الصارم(الاستقراء، الاستنباط)، تدبرا في القرآن الكريم، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدا تنوع تمظهراتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "**خطة الخلق العامة**"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تجلّت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "**خطة الخلق العامة**"، بحيث نتج عن ذلك التجلّي والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة.

إنّ **خطة الخلق العامة**، على المستوى المعرفي، هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. وهي على الصعيد الوجودي تدبير إلهي مُحْكم خرج من مشكاة العلم الإلهي قضاء إلى مجال التحقق الفعلي في الزمان والمكان قدرا، وهي السبب في خلق السماوات والأرض: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)(هود). وهي تتكشّف لحظة بلحظة منذ بداية خلق الكون إلى نهايته المحتومة بقيام الساعة، فليست هناك لحظة واحدة يكون فيها الكون على حالته التي كان عليها قبلها. والله تعالى هو القائم عليها يدبّر أمرها، وهو سبحانه الضامن لتحققها قدرا كما قضاها علما، ويصدّق القرآن ذلك في آيات بينات: (وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ

عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾)(يونس)؛ (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾)(الأنعام)؛ (ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾)(الرعد)؛ (يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾)(الرحمن)؛ (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾)(البقرة)؛ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾)(الحج)؛ (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾)(البقرة).

لذلك فإن البحث العلمي في التمظهرات التاريخية لخطة الخلق العامة سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق.

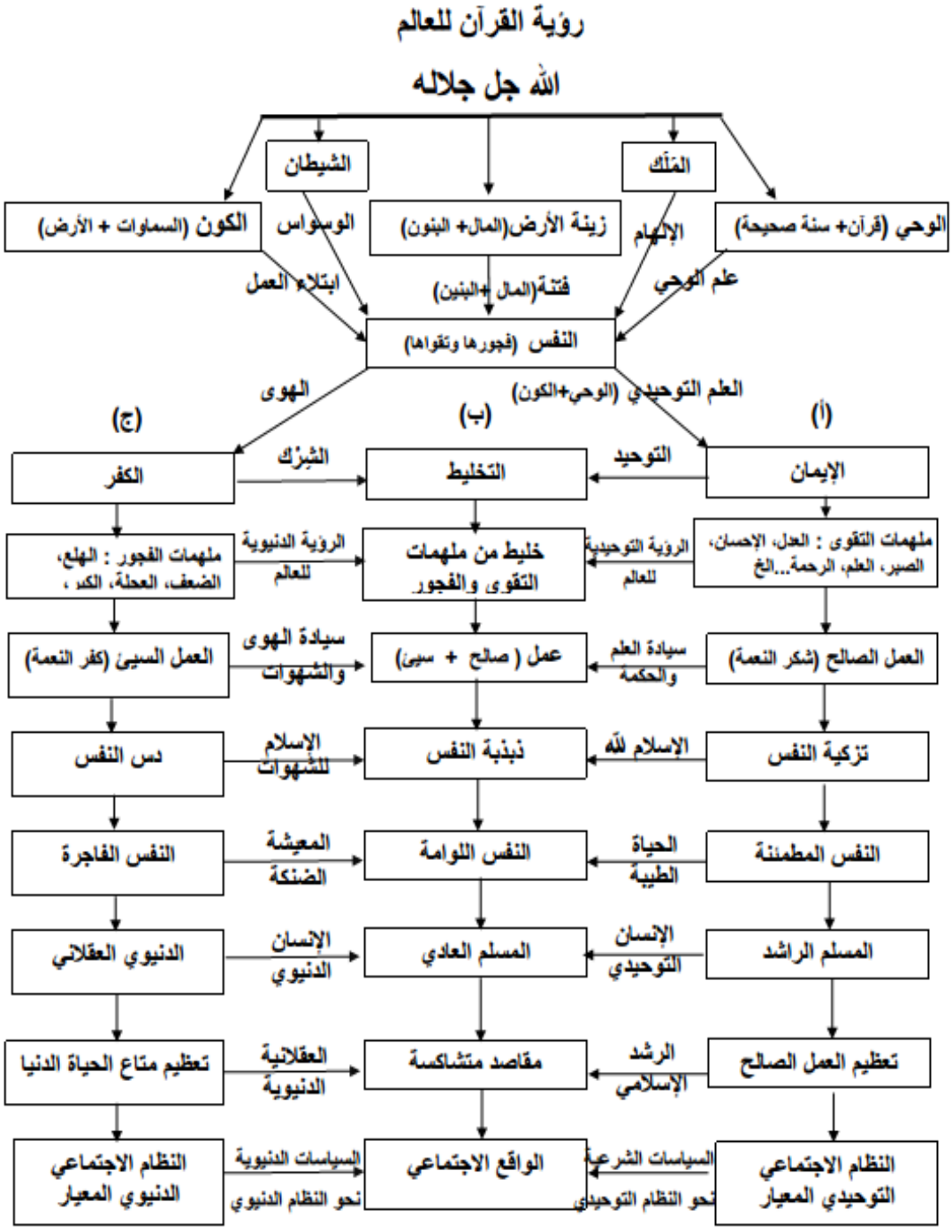

## رؤية القرآن للعالم





mbiraima@gmail.com

بروفيسور/ محمد الحسن بريمة إبراهيم/معهد إسلام المعرفة (إمام) / جامعة الجزيرة

شكل رقم (2)

نظام الاجتماع التوحيدي

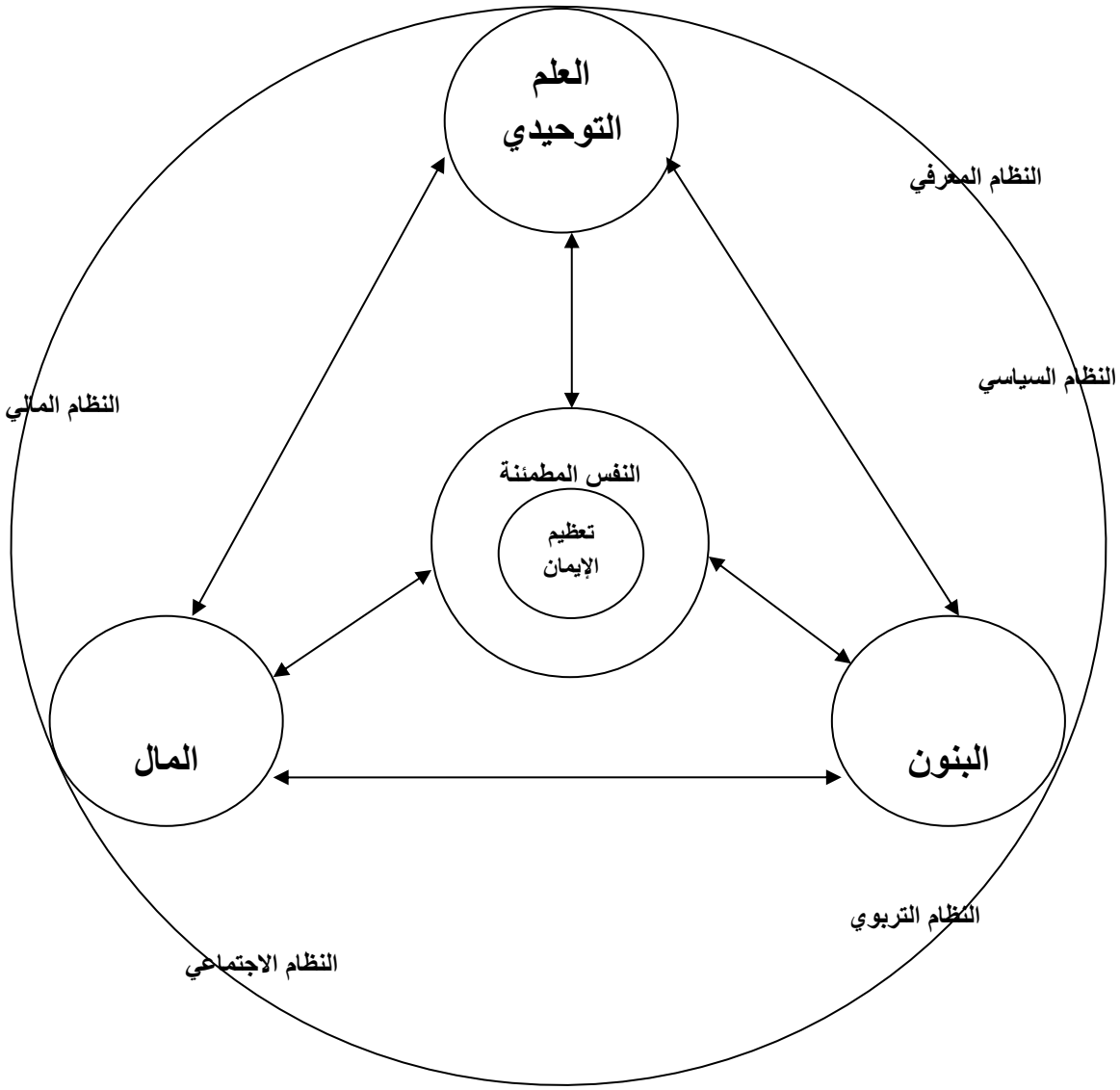

شكل رقم (3)

نظام الاجتماع الدنيوي

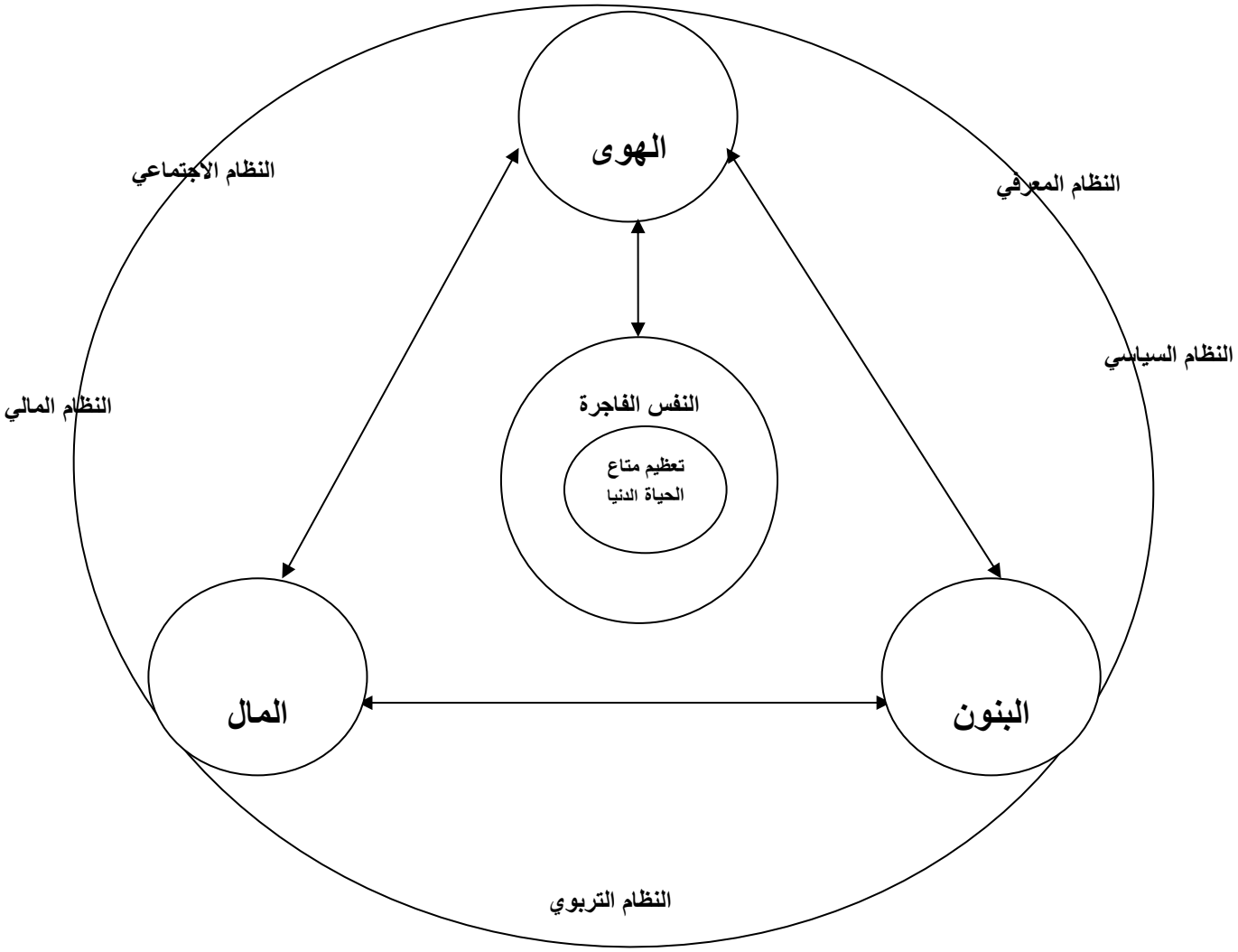

الذي يمعن النظر في نظام (خطة الخلق العامة) في الشكل رقم (1) أعلاه يلاحظ ظهور عنصرين فاعلين في هذه الخطة الإلهية العظيمة، التي محورها الإنسان، لم نذكرهما من قبل، وهما "المَلَك" و"الشيطان". ليس من المناسب هنا التفصيل في طبيعة وأهمية الدور الذي يلعبه كل من "الملك" و"الشيطان" في حياة الإنسان الابتلائية في هذه الحياة الدنيا، ولكن أي حديث عن هذا الدور مهما قل لابد أن يسبقه ثم يلازمه حديث عن دور "القلب" كجوهر للنفس البشرية ومحل للابتلاء، ومن ثم كمستقبِلٍ للمّة الملك ولمّة الشيطان، كما يفيد بذلك الحديث الشريف الذي أورده النسائي في السنن الكبرى: (أَخْبَرَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لِمَّةً، وَلِلْمَلَكِ لِمَّةً، فَأَمَّا لِمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لِمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ مِنَ الْآخَرِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَرَأَ [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا: البقرة:268]).

القلب في القرآن والسنة هو جوهر الإنسان، ويجب أن يكون المستهدف بالتزكية والتربية على المستوى العقلي لأنه هو الذي يعقل، وعلى المستوى الوجداني لأنه هو الذي يَوْجد، وعلى المستوى الإرادي لأنه هو الذي يريد. إن القلب هو الواصل بين العبد وربه، وهو الواصل بين الوحي والعمل الإنساني الصالح من جهة وبين العمل الإنساني الصالح والخَلْق الكوني من جهة أخرى، لذلك فإن الله تعالى لا ينظر إلى صور الناس ولكن ينظر إلى قلوبهم. إن القلب خُلق ليكون عابدا؛ فلابد له إذن من إلاه، فإن لم يكن الله كان إلاهه هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هُدىً من الله. إن الهوى هو سفير الشيطان في قلب كل إنسان، وهو لذلك مستقبل كل أنواع الواردات الشيطانية، ابتداءً من الوسوسة، مرورا بكل أنواع الغواية الصوتية والمرئية، والأفكار الدنيوية(إن هي إلا حياتنا الدنيا)، وانتهاءً بكل أنماط الفعل الاجتماعي المفضي إلى الفساد في الأرض: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١)(البقرة). ويُجمل القرآن الكريم

هذه الأبعاد الشيطانية للقلب في آيات بليغة: (تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣)(النحل)؛ (وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤)(الأنعام). وفي تحذير توجف له القلوب يخاطب الله تعالى المؤمنين: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤)(الأنفال). ويربأ الله تعالى بالمؤمنين أن تكون قلوبهم في علاقتها به مثل غيرهم من أهل الكتاب: (أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦)(الحديد).

ويوم البعث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وقليل ما هم. وفي آيات قرآنية بليغة يسأل الله تعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، الملائكة عن ماذا كان يعبد الناس من دون الله في حياتهم الدنيا، وهو أعلم بما كانوا يعملون: (وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١)(سبأ).

إن القلب، الذي هو بهذا القدر من الخطر، جدير بأن يكون بأعين أهل النظر والعمل في كل أمة من الأمم، لا سيما أمة الإسلام، فيوالونه بالبحوث العلمية المتكاملة، عبر مؤسسات علمية متخصصة، لمعرفة أحواله وأطواره والمؤثرات عليه، وكيف تتخلّق شخصية الإنسان بداخله عبر مراحل العمر المختلفة، وما هي السياسات التعليمية

والزكوية التي يمكن أن تحكم التفاعل الإدراكي والوجداني والإرادي في القلب بحيث تتيسّر صياغة الشخصية السويّة الإيجابية للمسلم(المسلم الراشد). إن الأعمال العظيمة، كمّا ونوعا، وتلك الحقيرة كمّا ونوعا، تصدر عن القلب، ولا يحصد المجتمع من العمل من أفراده إلا بمقدار ما زرعه في قلوبهم منذ صغرهم. لذلك يجب أن يكون للقلب دور مركزي في "رؤية القرآن للعالم"، وقد كان الأمر كذلك في قرون الإسلام الأولى، ثم تراجع كما تراجعت كل أسباب الصلاح في الأمة.

هذا مقام مناسب لاستدعاء وللتذكير بأهمية "القصّة"، التي وردت في التعريف الديني لرؤية العالم، كوسيلة فعالة لبلورة رؤية الإسلام للعالم، ثم في ترسيخها في القلب بكل أبعاده القرآنية: العقلية؛ الوجدانية؛ الإرادية. إن القصة هي أسهل وأرفق وأحب الوسائل الإدراكية للوصول إلى قلوب الناس، صغيرهم وكبيرهم، لا سيما في هذا الزمان الذي يأخذ فيه الإخراج المرئي والمسموع بأنفاس المشاهد والسامع. إن قصة واحدة من القصص الحق– سواء كانت من قصص القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو السيرة النبوية وسير الصالحين، أو من نسج الخيال تأسيسا على الوحي– جيدة السبك كشكسبير، جيدة الإخراج كهوليوود، سواء في كتاب يقرأه الناس قياما، أو قعودا، أو على جنوبهم، أو في شريط صوتي يسمعه المسافر والمقيم متى شاء، أو في مسلسل تلفزيوني، أو فِلم هوليوودي في جودته، أو فلم كرتوني على غرار ديزني في رشاقته، أو كل ذلك مودع في الفضاء السايبيري، قصة واحدة من هذا النوع تعبّر عن رؤية الإسلام للعالم، مترجمة إلى كل اللغات الحية، يمكن أن تصل إلى الجم الغفير من الناس في كل مكان، وتحدث من الأثر في قلوبهم ما لا تحدثه ألف خطبة وموعظة دينية من ألف خطيب.

لابد أن تعود للقصة مكانتها في التزكية والتعليم الإسلامي، وفي ثقافة المجتمع المسلم، تحكيها الأم لصغارها قبل نومهم، أو يسردها المعلم لتلاميذه في مدرستهم، أو يقومون بتمثيلها في مسرحهم. ولابد من الاحتفاء والتكريم والمكافأة للأدباء والممثلين

والمخرجين الذين يتولد عن عبقريتهم هذا النوع من الأدب الرفيع، الآسر للقلوب الهادي إلى صراط مستقيم.

إن كتب التراث الإسلامي في مجال التصوّف مليئة بكنوز العلم والقصص المتعلق بفقه القلوب، وتخليتها من أخلاق الفجور وتحليتها بأخلاق التقوى، وكيف يُحمى القلب من همزات وكيد الشيطان الوسواس الخناس. ويجب على الأمة الإسلامية الاستفادة من ذلك التراث العظيم في المجال التربوي، وتنقيته واستئناف البحث فيه بانضباط منهجي، لأنه من علوم الأمة الضرورية التي لا غنى عنها إلى قيام الساعة.

يخبرنا القرآن الكريم بإيجاز بليغ وفي آيات قليلة عن الدور الذي تقوم به الملائكة في حياة الإنسان في الأرض: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾)(الشورى)؛ (نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾)(فصلت)؛ (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾)(الأنفال)؛ (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾)(الانفطار).

يخبرنا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بتفصيل دقيق عن الدور، السالب والحاسم والخطير، الذي قام ويقوم به الشيطان، بلا كلل أو ملل، في إضلال الإنسان عن صراط الله المستقيم، منذ الخلق الأول للإنسان وإلى قيام الساعة، من منطلق الحسد ثم العداء. الحسد للإنسان هو الذي جعل إبليس، الذي نَسَل كل شيطان، يعصي الله تعالى في الملأ الأعلى، وينال لعنته الأبدية بسبب ذلك: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ

لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾)(الحجر).

إبليس، بعداوته للإنسان، هو الذي أخرج أبويْ بني آدم من الجنة إلى الأرض: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾)(طه).

إبليس وذريته من الشياطين تعهدوا لله تعالى بملاحقة بني آدم في الأرض والاجتهاد في إغوائهم عن منهجه حتى لا يجد أكثرهم شاكرين، وقد أذن الله تعالى لهم في ذلك: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾)(الإسراء)؛ (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ

لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ
خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ
ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ
بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾
قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾
وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن
سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ
ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا
ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ
أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا
ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ
بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ
وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾)(الأعراف)؛ (إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن
يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا
مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا
مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾)(النساء).

إبليس وذريته يقعدون للإنسان صراط الله المستقيم في زينة الحياة الدنيا(المال؛ البنون) حيث الابتلاء بحب الشهوات مستقر في القلب، فقد جاء في الحديث الشريف الذي جاء في السنن الكبرى للنسائي: (عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ " فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ").

إبليس وذريته، رغم ضعف كيدهم، إلا إنهم كسبوا معركتهم مع بني آدم، إلا قليلا، وقد وثّق ذلك القرآن الكريم في آيات بينات: (وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾)(الأنعام)؛ (وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾)(سبأ)؛ (تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾)(النحل)؛ (وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾)(سبأ).

جاء التحذير والتوجيه القرآني حازما للناس عامة وللمؤمنين خاصة باتخاذ الشيطان عدوا لأنه لهم عدو مبين: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ

ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦)(فاطر)؛ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝١٦٨)(البقرة)؛ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٠٨)(البقرة)؛ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١)(النور).

## 4- مفهوم الاستخلاف كما في رؤية القرآن للعالم

خير مبتدأ لهذا الجزء من البحث هو الآيات الكريمة التي ابتدأ الله تعالى بها إخباره الملائكة في الملأ الأعلى بأنه جاعل في الأرض خليفة:

(وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ

بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧).

مدلول هذه الآيات وتلك المرتبطة بها فيما يلي مفهوم الاستخلاف ندرسه من خلال المحاور التي تستغرق جل، إن لم يكن كل، مفهوم الاستخلاف، وهي: المستخلِف؛ المستخلَف؛ المستخلف فيه؛ حقيقة الاستخلاف من حيث مقاصده ووسائله ومبتدئه ومنتهاه؛ الجزاء على القيام بواجب الاستخلاف أو الفشل فيه.

## 1.4 – الله تعالى المستخلِف

القسم السابق تضمن كلام الله تعالى عن ذاته المقدسة وعن أفعاله، بمقتضى أسمائه الحسنى وتجلياتها الكونية، خلقا يشمل عالم الغيب والشهادة، ولا نستطيع المزيد على ذلك فيما يلي هذا الجانب من أمره تعالى. ولكن يبقى سؤال الملائكة[8] عن الحكمة من استخلاف الله تعالى لمخلوق في الأرض لا ترى من ظاهر أعماله التي أراها الله تعالى لها إلا الإفساد وسفك الدماء، بينما إن كان الأمر يتعلق بعبادته تعالى، تسبيحا وتقديسا، فهم، أى الملائكة، يقومون بذلك على الوجه الذي يرضيه. والله تعالى لم ينف الوصف الذي وصفت به الملائكة أعمال الإنسان التي ستقع منه بعد استخلافه وتمكينه في الأرض، ولكنه رد عليهم أن حكمة الاستخلاف هذه أجل وأعظم مما علمته الملائكة عنها لتوها، وهو ما يعلمه الله ولا يعلمونه. ولقد أثبت التاريخ الإنساني على الأرض، مما وثّقه الإنسان أو صدّقه القرآن، صحة ما ذهبت إليه الملائكة، فقد كان تاريخا يغلب عليه، ليس فقط الإفساد في الأرض وسفك الدماء، بل الكفر والشرك بالله تعالى والحرب التي لا تضع أوزارها على رسالاته ورسله. ولكن كل ذلك لا ينفي وجود الحكمة الأجلّ التي اختص الله بعلمها من دون الملائكة. ولا شك أن هذه الحكمة الزائدة عن علم الملائكة ذات علاقة مباشرة بعلم الأسماء الذي علّمه الله تعالى لآدم كما تشير إلى ذلك الآيات

[8] – حتى الملائكة تسأل؛ تأليف د. جيفري لانق؛ ترجمة د. منذر العبسي؛ دار الفكر المعاصر (بيروت) ودار الفكر(دمشق)؛ (ط2005،2).

أعلاه، فماذا يمكن أن نستشف نحن البشر من ذلك في ضوء مفهوم الفطرة ورؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة) مما مضى ذكره في القسمين السابقين؟

إن الله تعالى ليس بحاجة إلى خليفة ليدبر له أمر خلقه، فالناس والخلق كلهم فقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، ولكن الكون كله، بغيبه وشهادته، إن هو إلا تجلٍّ ضروري وأثر ومجال للفعالية الدائمة لأسماء الله الحسنى التي ذكر الله تعالى بعضها في القرآن الكريم. والإنسان، من دون جميع المخلوقات التي أعلمنا الله عنها، وحيا أو نظرا، هو التجلّي الأتم لفعالية الأسماء الحسنى والمجال الأمثل لفعلها ونفاذ أثرها، وذلك بسبب ما نفخ الله فيه من روحه فأنشأه بذلك خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. المخلوقات كلها التي نعلمها مخلوقة على طاعة الله تعالى اضطرارا إلا الثقلين، الجن والإنس، فهما بالخيار في ذلك. والقرآن الكريم لم يخبرنا بتفصيل عن خلق الجن غير أنهم خلقوا من مارج من نار السموم، ولا عن قدراتهم إلا قليلا مما نعده نحن البشر من الخوارق، ولم يخبرنا عن طبيعة مجتمعاتهم وأنماط حياتهم ولا عن طبيعة تكليفهم على هذه الأرض ولا كيف يؤدونه، ولم يقل القرآن إن الله تعالى عرض عليهم الأمانة كما عرضها على السماوات والأرض والجبال اللاتي أشفقن منها وأبين أن يحملنها، بينما حملها الإنسان عندما عرضت عليه. ولكن الإنسان، بنفخ الله فيه من روحه، اكتسب حظا نسبيا من جميع الصفاة المنبثقة عن أسماء الله الحسنى التي نعلمها، والتي بها أصبح الإنسان قادرا باختياره على الإيمان بالله وفعل الخيرات، وأصبح ذلك الحظ النسبي من الفعاليات المقدسة أساسا لأخلاق التقوى، وأصبح الإنسان مكلفا بالقيام بحقها، وجُعلت خلافة الإنسان في الأرض مجالا لنفاذ أثرها من خلال عمله فيما استخلف فيه، وهي الأمانة التي حملها الإنسان وبحقها يحاسب في الدنيا والآخرة.

إن فطرة الله التي فطر(خلق) الناس عليها، مما استعرضنا في القسم الأول من هذا البحث، و"خطة الخلق العامة" التي قامت بها السموات والأرض وجُعل الإنسان مرتكزها، تبين أن الله تعالى خلق الإنسان خلقا يجعله من خلال عمله في الأرض مجالا يتكامل فيه نفاذ فعالية الأسماء الحسنى، وليس ذلك إلا للإنسان. فبقدر ما أعطى الله تعالى الإنسان نصيبا نسبيا من صفاة أسمائه الحسنى(الإيمان، الصبر، الرحمة، الصدق، العدل،

الإحسان، العلم..إلخ)، وجعلها ملهمات التقوى في النفس البشرية أعطاه أيضا نقيضها(الضعف، العجلة، الهلع، الشح..إلخ)، وجعلها ملهمات الفجور في النفس. فبمقتضى حظه النسبي من الصفاة الحسنى يستطيع الإنسان أن يكون رحيما على خلق الله فيكون بذلك مجالا لرحمة الله، والرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى؛ ولكن الإنسان أيضا قادر على القسوة على مخلوقات الله فيكون بذلك مجالا لانتقام الله، والمنتقم من أسمائه الحسنى؛ والإنسان قادر على الإحسان في عبادته لربه وفي معاملته لخلقه فيكون بذلك مجالا لحب الله ولمودته، والودود من أسماء الله الحسنى. والإنسان قادر على معصية الله، وإن كان مؤمنا، فيكون بذلك عرضة لعقابه، ولكن الإنسان أيضا قادر على الندم ومن ثم الاستغفار والتوبة إلى الله فيغفر له ذنوبه ويتوب عليه، والغفار والتواب من أسمائه الحسنى. ومنتهى ذلك أن يكون الإنسان عبدا لله ربانيا على خلق عظيم بلغ منتهى مدارج السالكين إلى الله فيكون بذلك مجالا لعمل جميع الأسماء الحسنى فيما هو خير له في دنياه وآخرته، أو أن يكون كافرا بالله مدعيا الألوهية لنفسه، كما فعل فرعون، فيكون بذلك مجالا لنفاذ أثر الأسماء المقدسة المناسبة لحاله كالمنتقم والجبار والمتكبر والقوي والمتين..إلخ. ومهما كان الإنسان فاعلا ومنفعلا بأسماء الله الحسنى في الدنيا، عملا وجزاءً، فإنه لن يكون إلا منفعلا بها في الدار الآخرة حيث الجزاء ولا عمل، وحيث الملك كله لله الواحد القهار.

إن الصفات الحسنى المقدسة في إطلاقها هي منتهى مدارج السالكين إلى الله تعالى، وما هم ببالغيها رغم الكدح والكَبَد في التزكّي، ولكنه استباق الخيرات، ولكل درجات مما عملوا. ولو لم تكن من حكمة من خلق الإنسان وتكريمه واستخلافه في الأرض، تأسيسا على قاعدة الابتلاء ثم الجزاء، إلا كونه فاعلا ومنفعلا بأسماء الله الحسنى لكفى بها حكمة جليلة غابت عن الملائكة، واستوجبت أن يقول الله تعالى لهم إني أعلم ما لا تعلمون. ولو لم تكن من أمانة إلا هي لكفى بها أمانة تنوء السموات والأرض والجبال بحملها، ولحق أن يقال لمن حملها إنك ظلوم جهول، فقد سقط الإنسان، عبر تاريخه في الأرض، سقوطا مدويا في حملها بحقها إلا ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، كما وصفهم القرآن. ورغم ذلك فهي أمانة كان لابد أن تكون لأنها مقتضى فعالية الأسماء

المقدسة، وكان لابد لها من حامل، وكان ذلك الحامل هو الإنسان؛ وكان لابد من مؤمنين وكافرين، ولله تعالى الحجة البالغة فلو شاء لهدى الناس جميعا.

إن تعليم آدم الأسماء كلها، أي كل ما خلق الله لأن كل تفيد الاستقصاء والحصر، في مقام تكريمه أمام الملائكة وتبيان جدارته بالخلافة الأرضية، دليل على عظم منّة العلم على الإنسان، فهو اسم مبهر من أسماء الله تعالى المقدسة، به خلق الخلق كله، وبه يقوم الجزاء يوم القيامة: (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧)(الأعراف). وبتمكين الإنسان من علم الأسماء عبر وسائل الإدراك لديه(السمع، البصر، الفؤاد) أصبح الإنسان قادرا على النظر المنهجي في خلق السموات والأرض وتحصيل العلم المتعلق بذلك، وأصبح مهيأً لتلقي علم الخبر وحيا من الله تعالى، وأصبح تكليفه بحمل أمانة الاستخلاف في الأرض، تعميرا وانتفاعا وشكرا للمنعم، ممكنا، والحجة عليه في الإيمان بالله تعالى، برؤيته لآيات الله في الآفاق وفي نفسه، قائمة.

ولكن تبقى بعد كل هذا قضية شائكة، بيّن شوكها، بشأن التجربة الاستخلافية للإنسان في الأرض، التي سبقت والماثلة منها الآن، مع تمام يقيني بحكمة الله تعالى وحجته البالغة. إن التاريخ الذي يوثّقه ويصدّقه القرآن الكريم(إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢)(آل عمران) عن مجريات "خطة الخلق العامة" على الأرض عبر الزمان يبين أن الأمم السابقة لم تستجب لرسالات الله، بل وأعلنتها حربا ضروسا على رسله، فريقا كذبته وفريقا منهم قتلته، فاستحقت بذلك من الله الهلاك والتدمير، بل حتى المؤمنين منهم ما آمن أكثرهم إلا تحت ضغط التهديد والوعيد الإلهي، كقوم يونس وقوم موسى، عليهما السلام؛ وقليل من هؤلاء من وفّى بحق الإيمان: (فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦)(هود)؛ (تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣)(النحل)؛ (ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا

كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾(المؤمنون)؛ (وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾)(الإسراء).

وإذا نظرنا إلى واقع البشرية اليوم فيما يتعلق بمستحقات الإيمان بالله تعالى، وقد أصبحت آيات الله في الآفاق وفي الأنفس تترى، بحكم تسارع الاكتشافات العلمية والتراكم المعرفي عبر القرون، ووصول وحي الله إلى كل الناس في الأرض بكل اللغات المعروفة، فلا نرى اختلافا عن أحوال الأمم السابقة، بل نرى الفساد في الأرض قد اتسع حتى عم البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ونرى الناس في كل مكان يكتوون بويلات هذا الفساد. بل حتى تاريخ خير أمة أخرجت للناس لا يختلف كثيرا في معظم فتراته عن هذا الاستنتاج. وعندما نتأمل "خطة الخلق العامة" وبنائها المحكم، وطبيعة الابتلاء الكامن فيها مصحوبا بطبيعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما فصّلناهما في القسمين الثاني والأول، وما ينجم عن ذلك من تفاعلات بين متغيراتها الضرورية(الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم التوحيدي، الهوى، المال، البنون) نصل إلى الإستنتاج ذاته، وهو أن تاريخ الاستخلاف البشري على الأرض ما كان يمكن أن يكون غير ما كان عليه. فما هي يا ترى حكمة الله الحكيم العليم ذي الحجة البالغة في أن ينتهي أمر الاجتماع الإنساني المعبّر عن حقيقة الاستخلاف في الأرض إلى ما انتهى إليه حتى الآن، علما بأنه ما خلق الناس إلا لعبادته؟ نحن لسنا نسأل الله تعالى أو نستدرك عليه، فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل بل نحن المخلوقين الذين سوف نُسأل، كما إنه ليس المقصود أن نزرع اليأس من روْح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون، ولكنّا نطرح السؤال حول هذه المآلات الدنيوية الخطيرة لتجربة الاستخلاف الإنساني في الأرض لنعتبر منها فيما يلينا من استخلاف على المستوى الفردي والجمعي، وحتى نتبصّر أحوالنا ونثبّت أقدامنا على الصراط المستقيم فلا تزلّ بعد ثبوتها ونذوق السوء كما ذاقه من قبلنا من الأفراد والأمم، وحتى نأتي من الباقيات الصالحات من الأعمال ما يكافئ في عِظَمه عِظم النبأ العظيم الذي جاء به الوحي، وعِظم الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها،

وتصدينا نحن البشر لحملها، وقبل كل ذلك عِظم الخلق الكوني، بداية ونهاية، وهو ما خُلق إلا ليكون مجالا لابتلاء الناس أيهم أحسن عملا: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)(هود). إن الذين حملوا عبء رسالة الإسلام في العهد النبوي فأدّوا حقها كانوا أناسا استثنائيين في التزامهم الديني وفي أعمالهم التي أضاءت الدنيا، وسوف يظل الأمر دائما كذلك لكل من أراد أن يتقدم هو بالإسلام، فردا أم جماعة، أو أراد أن يقدم الإسلام للعالمين. لذلك قال الله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ...لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾)(الممتحنة)؛ (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾)(الأحزاب).

إنّ الذين يفسرون الآية القرآنية: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾)(الروم)، بأنها تعني أن الناس يولدون على فطرة(خِلقة) الإسلام، داعمين فهمهم هذا بالحديث الصحيح في مسلم(ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)، يدحض تفسيرهم هذا مفهوم الفطرة في القرآن الكريم الذي سقناه في القسم الأول من هذا البحث، وتاريخ تجليات هذه الفطرة على الأرض، سواء ما ذكره القرآن أو دونته الأقلام،

وكذلك المنطق العقلي الثاوي في هذه الفطرة. أما الفطرة(الخِلقة) في القرآن فقد قدّم الله تعالى ملهمات الفجور على ملهمات التقوى في النفس وجعلها أصل الفطرة(الخِلقة)، كما في قوله تعالى: (وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨)(الشمس)؛ (إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١)(المعارج)؛ (خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧)(الأنبياء)؛ (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ۝٢٨)(النساء)؛ (لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤)(البلد)؛ (ۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨)(النساء)؛ (قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠)(الإسراء).

ونتيجة لهذه الخصائص الفطرية في النفس البشرية جاءت الأوصاف العامة للإنسان في القرآن الكريم تؤكد غلبة الفجور على أفعاله في الجملة، كما في الآيات الآتية: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧)(الإسراء)؛ (قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠)(الإسراء)؛ (وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ۝٨٣)(الإسراء)؛ (يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣)(سبأ)؛ (وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣)(يوسف)؛ (وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١١٦)(الأنعام)؛ (يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ

يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾(يس). ولا ننسى قول سيدنا يوسف عليه السلام: (وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾)(يوسف).

ملهمات التقوى(الإيمان؛الصبر؛السخاء؛ الصدق؛ الأمانة؛ الشكر؛ الرحمة...إلخ) على النقيض من ملهمات الفجور، لا نجد آية واحدة في القرآن الكريم تجعلها وصفا عاما للناس، بل دائما هي حالات استثنائية لأشخاص استثنائيين بذلوا من الجهد في الإيمان والعمل الصالح(التزكية) ما حقق لهم تقوى الله تعالى فاستحقوا رحمته، حياة طيبة في هذه الدنيا وجزاء أجرهم بأحسن ما عملوا في الدار الآخرة: (إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾)(هود)؛ (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾)(فصلت)؛ (إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾)(الزمر)؛ (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾)(العصر)؛ (فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾)(يونس)؛ (فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾)(هود)؛ (وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ﴿٢٤﴾)(ص).

أما المنطق العقلي الثاوي في فطرة الله التي فطر الناس عليها والذي به قام التكليف للإنسان فيردّ على من فهم من الآية بأن الفطرة هي الإسلام بقضية منطقية وهي:

ليس منطقيا أن يتحول الأصل الذي فُطر عليه كل الناس، وهو الإسلام والتوحيد بزعمهم، إلى استثناء عبر مسيرة التجربة البشرية على الأرض، ويصير الاستثناء، وهو الكفر والشرك بزعمهم، إلى تيار جارف يكيّف التاريخ البشري، سواء في موقف البشر من الله والرسل والرسالات، أو في مظاهر الفساد في الأرض التي أدت إليها هذه التجربة. فجوهر الأشياء دائما تكون له الغلبة في متوسط التمظهرات التي من خلالها يتكشّف ذلك الشيئ عبر سيرورته، وقد عبّرت النفس البشرية عن غلبة ملهمات الفجور عليها من خلال تمظهراتها الاجتماعية عبر تاريخها في الأرض، وكسبت كسبا قال الله تعالى فيه: (وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾)(فاطر)؛ (وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾)(الأعراف).

إن الرجوع إلى "خطة الخلق العامة" والتفكّر فيها يمدنا بفهم نخْضُضُ به، إن شاء الله، شوك قضيتنا التي نسبر غورها، وما يلي من أسطر نعبّر فيها عن فهمنا الذي يسّره الله تعالى لنا، وهو المستعان وعليه التكلان سبحانه.

أولا؛ إن الله تعالى له ملك السموات والأرض، تمنع عزّته أن يُسأل عما يفعل، وتقضي حكمته وعلمه أن يبلغ فعله تمام الكمال، عدلا وإحسانا، وأن تتم كلمته صدقا وعدلا. وهوتعالى حرّم الظلم على نفسه، فلا يظلم أحدا من خلقه، بل أمْرُه مع الناس كلهم يدور بين العدل والإحسان، فلم يبق في البحث عن إجابة على المسألة الشائكة هذه إلا الرجوع إلى "خطة الخلق العامة" لنبحث عن الحكمة الإلهية الثاوية فيها فتسعفنا بإجابات مناسبة إن شاء الله تعالى .

ثانيا؛ إن "خطة الخلق العامة" التي بسطناها في القسم الأول من هذا البحث تفتق في البصيرة إجابات عن السؤال يمكن إجمالها في الآتي:

"خطة الخلق العامة" خطة كونية إلهية محكمة اقتضتها كمالات وفعالية الأسماء المقدسة ونفاذ أثرها، والإنسان الخليفة في الأرض هو محورها، وهو المجال الأتم لتكامل عمل هذه الأسماء المقدسة كما أوضحنا سابقا. ولكن الخطة كلها تقوم على ابتلاء وامتحان عظيم للإنسان يكافؤ في عظمته عظمة الخالق الذي أحكمه، وعظمة خلق هذا الكون، بداية ونهاية، الذي يستمد حكمة خلقه من هذا الابتلاء: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)(هود). لذلك نبّه القرآن الكريم الإنسان الغافل عن هذا الابتلاء العظيم ومآلاته في الدنيا والآخرة: (قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾)(ص)؛ (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾)(يونس)؛ (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾)(الأنبياء)، حتى ينتبه الناس من هذه الغفلة المهلكة ويجتهدوا في الأعمال التي تؤهلهم للتوفيق في هذا الامتحان. وقد اقتضت "خطة الخلق العامة" والابتلاء الذي تتأسس عليه أن يخلق(يفطر) الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم من حيث قابليته واستعداداته الخلْقية المكافئة والمناسبة لهذا الامتحان، ومن هنا نفهم تماما لماذا جعل الله تعالى ملهمات

الفجور في النفس هي الأصل وملهمات التقوى تكتسبها النفس مجاهدة بالتزكية من ملهمات الفجور في امتحان زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، وهذا هو جوهر الابتلاء في خطة الخلق العامة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾)(الكهف)؛ (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾)(الأنبياء). ذلك أن سلعة الله غالية، وهي الجنة الأبدية، وقد حُفّت بالمكاره فلابد من كدٍّ وكَبَد ونَصَب من أجلها في هذه الدنيا، وقد أبلغنا الله تعالى ذلك بلسان عربي مبين فقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾)(البقرة)؛ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾)(آل عمران).

ولو أن الله تعالى خلق النفس بملهمات الفجور فقط في إطار هذا الابتلاء لكانت للناس حجة على الله، ولكنه سبحانه وتعالى صاحب الحكمة التامة والحجة البالغة ألهم النفس أيضا تقواها، وأعطى كل إنسان وجب عليه التكليف قدرا تاما من الحرية في خِلْقته، وإرادة كاملة تنبعث من تلقاء نفسه إن شاء، وقدرة على اكتساب العلم بوساطة مدركاته(السمع، البصر، الفؤاد) تمكّنه من الاستجابة لرسل الله ورسالاته إن شاء؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إذن هي ذات القدرات والملكات التي بها يمشي الناس في الأرض، يحددون من خلالها أهدافهم الدنيوية، ويتخذون الوسائل والتدابير اللازمة من أفعال وأعمال لتحقيقها دون أن يعلقوا الأمر بقضاء وقدر، ودون أن يبحثوا لأنفسهم عن أعذار تقعدهم عن تحقيق مصالحهم. وفي إطار الإيمان لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فيما

أمر ونهى، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت؛ ولكلٍّ درجات مما عملوا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا.

ولأنه امتحان كان لابد أن تكون هناك مادة يُمتحن فيها الناس، ولابد من أسئلة تخص هذه المادة تتفاوت في مستوى صعوبتها يجيب عنها الناس، ولابد من إجابات بعضها صحيح تتفاوت إجابات الناس في مقدار هذه الصحة، وبعضها إجابات خطأ يتحمل صاحبها وزر خطئه فيها: (الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣)(العنكبوت). والنجاح والرسوب في هذا الامتحان كلاهما متحقق بإذن الله، وبهما معا تتحقق الحكمة من "خطة الخلق العامة" وتتم فعالية الأسماء الحسنى المقدسة وينفذ أثرها: (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٢)(التغابن).

ولأنه امتحان قامت به السماوات والأرض، فهو ليس مثله امتحان، فهو يقتضي ليس فقط أن يؤمن المرء بالله تعالى، بل أن يكسب في إيمانه خيرا بالخروج عن داعية هواه في تفاعله مع زينة الحياة الدنيا حيث ملهمات الفجور ليكون عبدا لله اختيارا حيث ملهمات التقوى؛ وكل ذلك في مقدور كل إنسان مكلّف بلغته رسالة الله تعالى؛ كل حسب وسعه. وهو امتحان ثقيل على النفس البشرية، لأنه يقوم على الحق الذي يكرهه أكثر الناس: (إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥)(المزمل)؛ (فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١)(المدثر)؛ (لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨)(الزخرف)، ولكنه في مقدورها، ومكافئ لفطرة الله التي فطر

الناس عليها. والله تعالى، الحكم العدل، لا يكتب لكل إنسان إلا عملا لم يختر أن يعمل غيره في الوقائع الحياتية المقتضية لذلك العمل ولخيارات أخرى من العمل متاحة في ذات الوقائع، عبر مسيرة حياته على هذه الأرض. والحجة بينة في هذا من علم الإحصاء، فلو أن شخصا وجد نفسه في واقعة محددة وله أن يختار فعلا يناسبه من بين خيارات متعددة ومتاحة للفعل استجابة للواقعة فاختار فعلا بعينه، ثم أُعطي ترليون فرصة أخرى ليختار فعلا يناسبه من بين ذات الخيارات لذات الواقعة فاختار ذات الفعل فإن احتمال أن يختار فعلا مغايرا في الفرصة التي تلي الترليون هو صفر. ولذلك تلزمه الحجة إن كُتب عليه ذلك الفعل باعتباره اختياره الحر في الاستجابة لتلك الواقعة. ورغم أن الله تعالى خلق الناس وخلق أعمالهم، كما في قوله تعالى: (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾)(الصافات)؛ (قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾)(الرعد)، إلا أن ذلك، في رأيي، لا يؤدي إلى النزاع الذي نشب بين الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم في هذه القضية. ذلك أن الله تعالى لا يخلق خيار عمل واحد فقط مقابل موقف بعينه يقتضي من الإنسان التصرف بعمل ما حياله، بحيث يكون الإنسان مجبورا على القيام بذلك العمل الوحيد المتاح الذي خلقه الله، ولكنّ الله تعالى بعدله وإحسانه يخلق زمرة لا متناهية من الأعمال الممكنة والمتاحة مقابل ذلك الموقف المحدد، والإنسان، القادر على الاختيار في ذلك الموقف، بإرادته الحرّة يختار من بينها ما يناسبه، أخذا في الاعتبار جميع البيئات(الاجتماعية، الطبيعية) التي تكيّف ذلك الموقف. ومن هنا تنبع أهمية نظرية الاختيار الراشد التي ندعو لبنائها، المؤسسة على العلم الذي يمكّن من الكشف عن الخيارات الممكنة والمتاحة في كل شأن من شؤون المؤمن، على

المستوى الشخصي والجمعي، والمؤسسة أيضا على حرية الاختيار لدى الفرد بما يمكنه من اختيار أرشد الخيارات، وعلى الإرادة والقدرة على فعل الخيار الراشد الذي تم اختياره. وأرى، إن تمكن المسلمون من بناء هذا العلم، أنّ ذلك سوف يحدث ثورة في مجال مناهجنا التعليمية والتربوية وفي علومنا الاجتماعية، ثم، من الناحية العملية، ثورة في طريقة تصرفاتنا واتخاذ قراراتنا وبناء مؤسساتنا، وفي طريقة التعامل مع العالم من حولنا.

ولما كان الله تعالى هو أسرع الحاسبين، ولقد علم المستقدمين من الناس ولقد علم المستأخرين، فلقد كتب في أم الكتاب ما الناس فاعلوه وعاملوه باختيارهم مشوار عمرهم في هذه الحياة الدنيا، وما سوف تدخلهم فيه تلك الأعمال من سنن الله الجالبة للنفع وتلك الجالبة للضر، وما يترتب على نفاذ تلك السنن مما يصيب الناس من نفع وضر في معاشهم ومعادهم، ثم رفعت الأقلام وجفت الصحف، وهذا هو قضاء الله في الناس، ولا تجد لسنة الله تحويلا. ثم إن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا لن يأتي إلا بالأفعال والأعمال التي اختارها في علم الله، وقضى الله له بها في أم الكتاب، وهو قدر الله في كل إنسان، ولا تبديل لكلمات الله. وهكذا لزمت الناس حجة الله البالغة، ولخصت ما قلناه آيات بليغة في القرآن: (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨)(الأنعام).

بُعدٌ آخر يتعلق بالإجابة عن القضية الشائكة وذو ارتباط بما سبقه هو مدى فعالية أسماء الله الحسنى وتمام نفاذ أثرها على الإنسان، إذ لا يتحقق ذلك على التمام إلا في الدار الآخرة حيث الملك لله الواحد القهار. إن "خطة الخلق العامة" تبين لنا أن الله تعالى خلق الناس خلقا يجعلهم قادرين على الإيمان وعلى الكفر به، وأن أهل الإيمان قادرون على عمل الصالحات طاعة لله، وقادرون أيضا على عمل السيئات معصية له. ورغم أن

مآلات هذه الأعمال، من المؤمنين والكافرين، في الدنيا تؤدي إلى أن تتكامل الأسماء المقدسة في نفاذ أثرها على الإنسان، نفعا وضُرا، إلا أن تمام هذا النفاذ لأسماء الله المقدسة بسبب ذات هذه الأعمال لا يكون إلا في الدار الآخرة، حيث الجزاء الأبدي من جنس العمل الدنيوي. إن نفاذ أثر الأسماء المقدسة في الدار الآخرة على المؤمنين يختلف تماما عنه على الكافرين، رغم أنهم كانوا في الدنيا يشتركون في بعضها مثل الرحمة والانتقام. فالرحمة مشتقة من اسم الرحمن الذي سوف يكتمل نفاذ أثره ويقتصر على المؤمنين فقط في الآخرة. ولأن غالب المؤمنين سوف يكونون مثقلين بالذنوب في الآخرة فإن تجليات الاسم المقدس"الرحمن" سوف تظهر حقيقتها تماما لكل الناس في ذلك الموقف العظيم حيث برّزت الجحيم لمن يرى، وحيث يظهر ضعف الناس وافتقارهم إلى رحمة الله على أشده: (فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾)(مريم). هناك يرحم الله تعالى كل من قال لا إلاه إلا الله ومات عليها، ويدخله الجنة، على تفاوت في الحساب لكل مؤمن، وقد ورد في الحديث الشريف: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ» (البخاري).

وكذلك الأمر بالنسبة لتجليات الاسم المقدس "المنتقم" حيث الانتقام في الآخرة يقتصر على الكافرين والمنافقين والمشركين فقط، ويظهر تمام نفاذ أثره في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبا.

نختتم الكلام في هذه القضية الشائكة باستنتاج يتعلق بعلم الأسماء الذي علمه الله تعالى لآدم عليه السلام، ودلالة ذلك على مستقبل الاستخلاف التوحيدي في الأرض، ذلك

أن عِلْم الأسماء كلها الذي عَلّمه الله تعالى كفاحا لآدم عليه السلام لم يرثه عنه أبناؤه من بعده، وإنما خلقوا بالوسائل اللازمة لتحصيله(السمع، البصر، الفؤاد) عبر علم الخبر من السماء، أو علم المختبر بحثا علميا في الوجود، وتراكما معرفيا. ولكن عبر تاريخ الاستخلاف الذي مضى في الأرض لم تتمكن البشرية مجتمعة من أن تحصل إلا على النزر اليسير من ذلك العلم الذي عَلِمه أبوهم، بحيث نستطيع القول بأنه لم يخلق وعيا معرفيا عند البشرية بآيات الله في الآفاق وفي الأنفس حتى يستبين لها أن الله سبحانه هو الحق، ومن ثم تتهيأ نفسيا لقبول رسالات الأنبياء. ولعل هذه الحقيقة قد أسهمت بقدر كبير في المواقف المعادية للرسل والرسالات بما جعل الاستخلاف البشري على الأرض دنيويا في مجمله. ولكن بعد بعثة محمد، صلى الله عليه وسلم، وعَدَ الله تعالى بأنه سوف يُري الذين كفروا آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. ولا شك أن البشرية خلال القرن الماضي وفي هذا القرن وما يأتي من قرون تقترب من وعد الله تعالى هذا بسبب الكشوفات العلمية المتسارعة والمبهرة في الآفاق والأنفس، وبسبب التراكم المعرفي لهذا العلم ووصوله إلى كل أهل الأرض عبر الوسائط المعلوماتية المتعولمة. وهذا العلم الكوني المتسارع والمتراكم يتم توظيفه الآن بصورة منهجية معقولة من قبل المسلمين لتبيان الحق الذي جاء به القرآن الكريم، ومن ثم دعوة الناس إلى الإسلام على بصيرة.

إن البشرية الآن تسعى حثيثا لتحصيل علم الأسماء الذي عَلِمَه أبوهم آدم من قبل، وسوف تجد نفسها وجها لوجه مع الحق الذي في القرآن الكريم، فماذا هي فاعلة إزاءه، وقد قال الله تعلى من قبل: (أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠)(المؤمنون)؛ (لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨)(الزخرف)؟

إنني أرى مستقبلا عظيما للاستخلاف التوحيدي في الأرض، حيث تتضافر الظروف لتحقيق ذلك، من بينها ما أشرت إليه من تراكم علم الأسماء وما سوف يؤول إليه من تبيّن الحق، مضافا إليه أن الناس من خلال العولمة يعودون تدريجيا أمة واحدة كما كانوا من قبل، من حيث الجغرافية والثقافة والمؤسسات والهموم والغموم المشتركة. إن العولمة المادية الجارفة تخلق أزمات وتصدعات نفسية عميقة على مستوى الأفراد في كل المجتمعات، وتتولد أجيال ليس لها ولاء لأفكار أو ثقافة بعينها، وبسبب التصدعات النفسية والفكرية الحالّة بهم فسوف يكونون مهيئين للنظر في كل ما يمكن أن يجعل للحياة معنى، ويحقق لهم سكينتهم النفسية وتماسكهم الفكري والاجتماعي. إن الإعراض عن ذكر الله جملة يقود، بمقتضى سنن الله الحاكمة للاجتماع الإنساني، إلى معيشة ضنكا يكون ضُرّها باهظا بحيث يجد الناس ألّا مناص من الفرار إلى الله تعالى، ولن يكون أمامهم من خيار إلا الحق الذي جاء به القرآن الكريم. والغالب أن يتحقق هذا الاستخلاف التوحيدي من خلال انتشار التوحيد في غير أهل الكتاب(اليهود والنصارى) في قارتيْ آسيا وإفريقيا، والناس فيهما يمثلون غالب أهل الأرض، وليست لديهم عداوات مستديمة مع الإسلام. أما أهل الكتاب فالغالب فيهم أن يدخلوا الإسلام فرادى وتبقى شعوبهم ومجتمعاتهم على ملّتها تحقيقا لقول الله تعالى: (وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ۙ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥)(البقرة).

نخلص من ذلك إلى أنه رغم أن ما مضى من تاريخ الاستخلاف البشري في الأرض أكد الحقيقة التي ألمحتْ إليها الملائكة بشأن الإفساد فيها وسفك الدماء من قبل الخليفة المعلن، إلا أنه ربما أن ما سيأتي من مستقبل الاستخلاف سوف يؤكد الحقيقة الزائدة التي يعلمها الله تعالى فوق ما علمت الملائكة، حيث يتضافر علم الآيات الوجودي

في الآفاق والأنفس مع علم الوحي في القرآن والسنة النبوية ليحقق الإنسان استخلافه التوحيدي، على قاعدة سكانية وتكنولوجية هائلة، وينبسط في الأرض جميعا(الأرضين السبع)، عبر حركة كونية يتوسل إليها بما سُخّر له من أسباب السماوات والأرض، ناظرا في ملكوتهما ليعلم أن الله على كل شيئ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيئ علما: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾)(الطلاق).

إنه استخلاف يتضاءل أمامه كل ما مضى من تاريخ البشرية على الأرض، إلا أنه استخلاف له شروطه: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾)(النور)؛ (وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾)(يوسف).

## 2.4 – الإنسان الخليفة

الإنسان الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا هو حر مطلق التصرف فيما استخلف فيه، بل المطلوب منه أن يقوم بسياسة ما استخلف فيه(الأرض) وفق ما يحب ويرضى المستخلِف(الله تعالى). لقد بينا فيما مضى من صفحات هذا البحث الكثير مما يتعلق بالخصائص الخلْقية(الفطرية) التي تؤهل الإنسان لمهمة الاستخلاف في الأرض، كما بينت " خطة الخلق العامة" جوهر هذا الاستخلاف ومآلاته في الدنيا والآخرة منسوبا إلى تلك الخصائص الخلْقية. لذلك نضرب الذكر صفحا

عنها هنا، ولكن نشير إلى أنّ الاستخلاف في أصله عام لكل الناس بمقتضى خطاب الله تعالى للملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، ولكن هناك من الناس من وعى حقيقة الاستخلاف من رسل الله تعالى فعلم أنه وكيل عن الله في الأرض، وأن هذه الوكالة لله سائله عن الوفاء بحقها، فإن وفّى فله أجر يوفّى إليه في الآخرة، يتفاوت الناس فيه بمقدار عملهم، ولهم على الله أيضا أن يحييهم حياة طيبة في هذه الدنيا: (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾)(النحل). هذا الصنف من الناس هم أهل التوحيد الذين آمنوا بالله ورسله واتبعوا النور الذي أنزل معهم، ويتأسس على كسبهم في الأرض ما أسميه الاستخلاف التوحيدي، وتتأسس حقيقة الخليفة فيه على قاعدة المسلم الراشد بأوصافه التي ذكرها القرآن: (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾)(الحجرات)؛ وقد سمّاهم الله تعالى عباد الرحمن وفصّل سماتهم. لذلك وعدهم الله تعالى بقوله: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾)(النور). وقال تعالى في شأن استخلافهم عند التمكين لهم في الأرض: (ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾)(الحج). ولن نبسط الحديث هنا لا عن الاستخلاف التوحيدي، ولا

عن نظيره الدنيوي، لأن ذلك لا يدخل في حدود البناء المفهومي للاستخلاف، وإن كان يتفرع عنه كموضوع مستقل.

ولكن بسبب طبيعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإنّ الغالب على تجربة الاستخلاف التوحيدية هو خلط العمل الصالح بآخر سيئ، ولما كان هناك أجر لمن قام بحق الوكالة فكذلك هناك عقاب لمن قصّر تقصيرا بينا في الوفاء بحقها، أو تعدّى، لذلك جاء الوعيد الإلهي: (وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾)(محمد)، وجاء التنبيه النبوي: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[صحيح مسلم 4/ 2098].

صنف آخر من الناس لم يع حقيقة أنه في الأرض وكيل، وظن أنه أصيل مطلق التصرف فيها، إما لأن خبر السماء لم يصله وإما أنه وصله ولكنه أنكره، طغيانا وكفرا: (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾)(العلق). ويتأسس على كسب هؤلاء ما أسميه الاستخلاف الدنيوي، وتتأسس حقيقة الخليفة فيه على قاعدة الدنيوي الفاجر بأوصافه التي وصفها القرآن: (أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾)(الفرقان)؛ (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾)(محمد). ولما كان هذا هو الاستخلاف السائد عبر تاريخ التجربة البشرية على الأرض، فقد خاطب القرآن الناس بهذا الشأن: (وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾)(الأنعام)؛ (إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ

بِغَاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾(النساء)؛ (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾)(الأعراف).

هذان الصنفان من الخليفة ظلا عدوين لبعضهما يتدافعان في هذه الأرض، سلما وحربا، وما كان للأمر أن يكون غير ذلك لمن تفكّر في "خطة الخلق العامة"، وتدبّر آيات الله البينات في هذه العلاقة التفاعلية: (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾)(البقرة)؛ (ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾)(الحج).[9]

## 3.4 – الأرض المستخلَف فيها

الأرض تشمل الكرة الأرضية، يابسة وماء وغلافا جوّيا، وهي بهذا تحديدا المكان الجغرافي الذي انحصرت فيه خلافة الإنسان: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾)(البقرة)؛ (قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾)(الأعراف). ولكن الأرض ليست كوكبا مستقلا عن بيئته الكونية، بل إن صلاحها للاستخلاف، واستدامة هذا

[9] – يمكن الرجوع في تفصيل طبيعة هذا التدافع والأشكال التي يتخذها إلى بحثي بعنوان: رؤية القرآن للعالم ودلالتها على أولويات المشروع الإسلامي في السودان(2011)؛ مجمع الفقه الإسلامي السوداني، الخرطوم.

الصلاح، رهين باستدامة تفاعلها مع بيئتها الكونية، القريبة منها(المجموعة الشمسية) والبعيدة( المجرات وما وراءها): (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾)(الطلاق).

والأرض كما وردت في القرآن الكريم ليست كوكبا واحدا هو هذا الذي نعيش فيه، بل هي سبعة أرضين كما تبين الآية السابقة. وهي سبع أرضين متماثلة بيئيا وفي الغرض منها، وهو استخلاف الإنسان فيها: (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾)(البقرة).

وبسبب هذا التماثل نجد أن كلمة أرض لم تُجمع قط في القرآن الكريم كما تُجمع كلمة السماء، رغم إمكان ذلك من حيث التصريف اللغوي، بل ترد دائما مفردة مضافا إليها كلمة "جميعا" لاستقصاء عددها، مقابل ذكر السماوات بصيغة الجمع غالبا، وذكر عددها أحيانا: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾)(الزمر)؛ (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾)(الجاثية). ولي بحث بعنوان "الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم"[10] دللت فيه من القرآن الكريم على صحة الفرضيتين الآتيتين، وهما يتعلقان بحقيقة الأرض واستخلاف الإنسان فيها:

[10] - أنظر البحث بالعنوان أعلاه في موقعي بالإنترنت(biraima.net)

الفرضية الأولى:

*الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان.*

الفرضية الثانية:

*سوف يبلغ الإنسان بعلمه وعمله جميع المتماثلات من الأرض في السموات السبع ليحقق مغزى الاستخلاف العمراني عليها قبل قيام الساعة.*

وبسبب هذا التفاعل الكوني فإن الإنسان المستخلف في الأرض مهيأ بالفطرة، فهو طُلْعة، ومأذون له بالعلم، من أجل القيام بحق الاستخلاف، أن يجوب أقطار السماوات والأرض مستكشفا، ولكن دون أن ينفذ منها: (يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾)(الرحمن).[11]

أنشأ الله تعالى الإنسان من الأرض واستعمره فيها: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَـٰلِحٗاۚ قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾)(هود). هذا الاستعمار للإنسان في الأرض يقوم على مبدأ الاستخلاف؛ والخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مطلق التصرف فيها كما يشاء، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة؛ بل يعمل، طوعاً دون إكراه، بأمر

[11] - أنظر تحليلنا للمضمون العلمي لهذه الآية الداعم لوجهة نظرنا هذه في بحثنا المشار إليه.

المستخلِف(الله) فيما استخْلِف فيه(الأرض)؛ ليحقق مغزى خلْقِه واستخلافه، ألا وهو عبادة الله تعالى، تكليفاً يتأسس على الإرادة الحرّة للإنسان؛ فمن شاء آمن ومن شاء كفر.

جعل الله تعالى ما على الأرض من زينة(المال، البنون) شهوة وفتنة يبتلي بها الإنسان لتتحقق بها إرادته الحرّة؛ فإما إيماناً يؤدي إلى عمارة الأرض بالعمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، شكراً يزيد النعمة ويديمها، ويحقق الحياة الطيبة في هذه الدنيا، والجزاء بأحسن ما كان يعمل في الآخرة؛ وإما كفراً تحول به النعمة إلى نقمة ومعيشة ضنكا، ويظهر في الأرض الفساد، وتؤول آخرته إلى بوار. وقد بينا طبيعة هذا الابتلاء تفصيلا في القسمين الأول والثاني من هذا البحث.

رفع الله تعالى السماء ووضع ميزاناً لكل شيء في هذا الوجود، ومن ذلك ميزان الأرض: (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩)(الرحمن)؛ (إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩)(القمر)؛ (ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢)(الفرقان). ولقد أنبت الله تعالى في الأرض من كل شيء موزون، بما في ذلك الإنسان الذي أنبته الله من الأرض نباتا: (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩)(الحجر)؛ (وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧)(نوح).

الميزان في الأرض يزن ويضبط التفاعلات التي تجري على الدوام في ثلاث بيئات رئيسة: البيئة النفسية للإنسان؛ البيئة الاجتماعية للإنسان؛ البيئة الطبيعية لكل المخلوقات الأرضية، بما في ذلك الإنسان. ولما كانت جميع هذه البيئات متداخلة ويعتمد بعضها على بعض فإن إقامة الوزن بالقسط في البيئة النفسية شرط لازم لإقامته بالقسط في البيئة الاجتماعية، وإقامة الوزن بالقسط في البيئة الاجتماعية شرط لازم لإقامته بالقسط في البيئة الطبيعية.

قدّر الله تعالى في الأرض أقواتها بميزان دقيق، سواء للسائلين من مخلوقاته، ويشمل ذلك الإنسان: (قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠)(فصلت). ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان الخليفة مسئولاً عن إقامة هذا الميزان الدقيق في الأرض. لكن الإنسان، الذي زُيّن له حب الشهوات في "المال" و"البنين"، قادر، بهواه وبغير هدى من الله، أن يطغى ويُخسِر هذا الميزان. لذلك أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان(الشريعة) لتعين الناس، إن التزموها، على إقامة الوزن بالقسط في كل البيئات الثلاث. هذا الالتزام بميزان الشريعة هو الذي يمكّن الإنسان من أن يأتي بتلك الأعمال التي تحقق الشكر لله على نعمته؛ والشكر هو حقيقة العبادة لله تعالى في هذه الأرض؛ وهو الضامن لاستدامة النعمة، واستدامة صلاح الأرض ومنع الفساد فيها.

إن عدم التزام الإنسان بميزان الشريعة الربانية أدى إلى إخسار الميزان في البيئة النفسية بطغيان ملهمات الفجور عليها؛ وطغيان ملهمات الفجور أدى إلى التجاوز في متاع الحياة الدنيا (المال، البنون)، ترفا وسرفا وتبذيرا لدى فئة من الناس، وفقرا ومرضا وجهلا لدى فئة أخرى، مما أدى إلى إخسار ميزان البيئة الاجتماعية، تظالماً وتعاوناً على الإثم والعدوان. أدى ذلك، ضرورة، إلى إخسار ميزان البيئة الطبيعية، فظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. إن الفساد الذي عمّ الأرض بعد إصلاحها من خالقها، لا سبيل إلى وقفه ثم عكسه وإعادة الصلاح إليها إلا بالرجوع إلى الميزان الإلهي وإقامة الوزن بالقسط في جميع البيئات الثلاث: (ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤١)(الروم)؛ (وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧)(إبراهيم)؛ (لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ

أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾)(سبأ).

## 4.4 – مجال الاستخلاف وحقيقته وسننه

استخلاف الإنسان على الأرض مجاله زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، وحقيقته عمارة الأرض تأسيسا على قاعدة ميزان الشريعة الربانية، وهو: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾)(النحل)، تحقيقا لمصالح الدنيا والآخرة، ودرءا لمفاسدهما، ومن ثم يتحقق مغزى العبادة، شكرا لله المنعم، شكرا يديم النعمة ويزيدها. وهذا الاستخلاف التوحيدي يتحقق من خلال إقامة الدين، شرعة(مقاصد) ومنهاجا(وسائل).

هذا هو الاستخلاف العمراني المطلوب دينا من الإنسان الخليفة، وقد سميته من قبل الاستخلاف التوحيدي، ولكن بحكم طبيعة "خطة الخلق العامة"، المؤيدة بالتجربة التاريخية للبشرية على الأرض، فإن العمران غالبا ما يتأسس على اتباع الهوى والشهوات، وهو ما أسميته بالاستخلاف الدنيوي، لذلك قال الله فيه: (قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾)(عبس).

العمران في الأرض، بشقيه التوحيدي والدنيوي، يتم من خلال التفاعل العظيم بين المتغيرات السبعة الضرورية المنتجة للظاهرة الاجتماعية في جميع تمظهراتها عبر التاريخ والجغرافية(الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم التوحيدي، الهوى، المال، البنون)، كما بينا ذلك في "خطة الخلق العامة" تفصيلا. وهذا التفاعل الاستخلافي يحكمه على مستوى الفعل الاجتماعي مبدءان سلوكيان هما، مبدأ تعظيم الإيمان من خلال تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، ومبدأ تعظيم المتاع الدنيوي من خلال تعظيم العمل السيئ

في زينة الحياة الدنيا. كذلك يحكم هذا التفاعل على مستوى الميزان الإلهي سنن اجتماعية لا تتبدل ولا تتحول. وقد عرّفت السنة الاجتماعية في بحث آخر على النحو الآتي:

*"كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له لينتهي به إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة لما قصده الفرد، أو الجماعة من الفعل، وقد يخص تأثيرها الفرد، أو يعم كل، أو بعض الجماعة".*

فهناك سنن الله الجالبة للنفع بإذن الله، وهي ترتبط عادة بالأعمال الاجتماعية المحققة لمبدأ تعظيم الإيمان الذي يتأسس علي نفاذ أثره الاستخلاف التوحيدي، ومن هذه السنن الآتي:

سنة **الشكر**: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ سنة **الهداية**:(وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾)(العنكبوت)؛ ومنها سنتيْ **الفرَج والحسْب**: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾)(الطلاق)؛ ومنها سنة **الحياة الطيبة**: (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾)(النحل)؛ ومنها أم السنن الاجتماعية، وهي سنة **الابتلاء والفتنة**: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴿٧﴾)(هود)؛ (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾)(الملك)؛ (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾)(الأنفال)؛ (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾)(الأنبياء)؛ (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾)(الفرقان)؛ ومنها سنة **النصر**: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾(محمد)؛ ومنها سنة **التدافع:** (وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾)(البقرة)....الخ.

وهناك سنن الله الجالبة للضر بإذنه، وهي ترتبط بالأعمال الاجتماعية المحققة لمبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، ومنها ما يلي:

سنة **الكفر:** (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)(إبراهيم)؛ ومنها سنة **المعيشة الضنكة:** (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾)(طه)؛ ومنها سنة **تقييض الشيطان:** (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾)(الزخرف)؛ ومنها سنة **الاستدراج:** (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾)(المؤمنون)؛ ومنها سنة **الإحاقة:** (ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾)(فاطر)؛ ومنها سنة **المحق:** (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾)(البقرة)؛....الخ.

ومن رحمة الله بعباده أن الناس يمكنهم الفرار، بأعمالهم، من سنن الله الجالبة للضر إلى سنن الله الجالبة للنفع، قبل فوات الأوان؛ أي الفرار من قدر الله إلى قدر الله، كما هو معلوم من قصة أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضي الله عنه، في موقفه من وباء الطاعون الذي أصاب بعض ديار المسلمين في عهده: (فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾)(الذاريات). ولأنّ سنن الله الاجتماعية مرهون تحققها بأعمال الناس الإرادية الراتبة، ولأنّ هذه الأعمال هي في حال تغير دائم بين الصلاح والفساد، على مستوى الفرد والجماعة، وقد تغلب أعمال الصلاح أحيانا، وقد تغلب أعمال الفساد، من حيث الكم والنوع، ولما كان تقدير كل ذلك علمه عند الله تعالى، فإنّ معرفة زمان ومكان ومدى تحقق هذه السنن، وما يترتب علي ذلك من مصالح أو مفاسد تصيب الناس، أمر يعسر ضبطه علميا، ولعل هذا من رحمة الله بالناس حتى لا يأمنوا مكره، بل يكونوا في حال من الترقب والحذر الدائم: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ

ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾)(الأعراف).

ولكن أحوال الأفراد والمجتمعات، والمصائب التي تصيبهم، أو تحل قريبا من دارهم، أو البركات التي تفتح عليهم من السماء والأرض، آيات تؤشر على اتجاه عمل تلك السنن، وفي هذا الإطار يأتي دور العلوم الاجتماعية في دراسة تلك الأحوال والظواهر الاجتماعية، وربطها بأعمال الناس الراتبة(Regularities)، وتصنيف هذه الأعمال من حيث صدورها عن الاستخلاف التوحيدي، أو الاستخلاف الدنيوي، وربطها من ثم بما يناسبها من السنن الاجتماعية المستنبطة من الوحي، أو من التاريخ(الواقع الاجتماعي)، بغرض استخلاص الآيات والعبر، ووضع السياسات الشرعية وتوفيق الأوضاع الاجتماعية، بما يؤدي إلى استدامة الصلاح، أو تدارك الفساد. إن الوحي الكريم، قرآنا وسنة، ثري بالسنن الاجتماعية الإلهية التي تغطي جميع جوانب هذا التفاعل الاستخلافي العظيم، ويجب استخلاص تلك السنن وتصنيفها والإفادة منها في تأسيس العلوم الاجتماعية الإسلامية.

تم بحمد الله